الوصايا القرآنية

بقلم

محمد الأقرع

1422 هـ - 2002 م

* الكتـــــاب : **الوصايا القرآنية**
* الكـــاتـــب : **محمد الأقرع**
* الطبـــعـــة : الأولـى **2002**.
* الناشـــــر : **دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .**
* التـــوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .**

تليفاكس : **3305538 - 3321744 / 040**

☎ **3316316 / 040**

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية - المحلة الكبرى

تليفاكس : **2120277 / 040**

* الإيداع القانونى : **1969 / 2002**
* الترقيم الدولى : **I. S. B. N 977 - 278 - 214 - 6**

Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail:albashira@compu-castle.com.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الوصايا القرآنية :

كتاب من أبواب تشتمل على فصول تتحدث عن مجموعة من آيات الكتاب العزيز حملت إلى الناس مع أمر الله ونهيه توجيهاً رفيقاً وتربية حانية وإرشاداً حميداً يهدى إلى السلوك الطيب الذى يدل على طريق السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة .

كتبته لرغبة عزيزة توجه بها إلينا صديق عزيز فجاءت على خير ما يتحراه مسلم يريد أن يعيش فى هذا السلوك الحسن مسترشداً بآيات القرآن والسنة المطهرة مع حكمة مأثورة لأصحاب التربية الرشيدة والتوجيهات الحسنة .

وهذه الآيات فى مجموعها بما اشتملت عليه من أوامر ونواه وتربية نفسية واجتماعية هى قمة ما يتمناه مربّ يريد أن تتأصل فى جنبات المجتمع البشرى عوامل الخير والرشاد والاستقامة قدمها القرآن صافية من غلواء التعقيد والإعنات نقية من مصطلحات علماء الأخلاق مبرأة من شطحات الوهم والخيال الذى تخيله فريق من الناس فى عصور الفلسفات الأولى وما استطاعوا أن يوجدوه مما سجل الفوق لكلام الله على كل كلام وتوجيه .

وسيجد القارئ فى هذه الفصول دراسة عن كل وصية من هذه الوصايا انفردت بها على حدة وقد رأيت ذلك وقصدت إليه خشية التكرار والإطالة لأن بعض الوصايا قد تكرر أكثر من مرة ، وتجد مثال ذلك فى الوصية بالوالدين فقد وردت فى مجموعة الوصايا من (سورة الأنعام) ووصايا لقمان وغير ذلك من الآيات وكذلك عدم الإشراك بالله ورد فى الوصايا وغيرها من سور القرآن لهذا رأيت - كما قلت - أن تحرر كل وصية على حدة وإن ظلت فى مكانها مع مجموعة الآيات التى أنزلت معها جهد المستطاع .

ومن أجل ذلك توزع الكتاب إلى ثلاثة أبواب اشتمل كل باب منها على

مجموعة من هذه الفصول هى فى مجموعها تمثل الهيكل الكلى لهذا الكتاب .

وسيجد القارئ - أيضاً - دراسة طويلة لبعض الوصايا أكثر من البعض الآخر ، ولذلك سببان :

السبب الأول : أننى تناولت فى غير هذا الكتاب بعض أغراض الوصايا فى كتب مستقلة مثل تربية الأولاد والشباب وكشف طريق الرجوع إلى الله وبيان دور العبادة فى إعداد الشخصية .

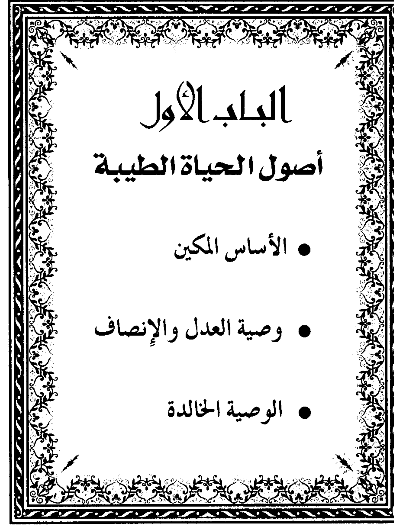
والسبب الثانى : فإن بعض الوصايا كتبت فيها كتابات كثيرة ومازالت الكتابة فيها جارية مثل الصبر والتواضع والصلاة والزكاة ورعاية اليتيم .

وإذا كان لابد من كلمة نقولها فى هذا التقديم للكتاب فهى : إنه - فى أغلب الظن - ربما كان الكتاب الأول الذى يجمع بين دفتيه هذه الوصايا ورسم لنفسه خطة فى عرضها والتزم بها إلى نهايته وتمثلت فى عدم البسط والتطويل الذى يخرج بالوصية عن حيزها المحدد الذى تنزلت فيه : عبارة موجزة بليغة وهدفاً مقصوداً وغاية تنتهى إليها : وذلك شأن الوصايا دائماً ولولا ذلك لما وقف الكتاب عند هذا القدر من الأبواب والفصول .

فلتكن هذه الصفحات جولة روحية مع هذه التوجيهات الربانية الحانية والوصايا الجامعة التى وجهت إلى الناس من ربهم بعيداً عن الاستطرادات والتفريعات وحسب القارئ أن يعيش مع الوصية فى جو رحيم طيب يخشع فيه القلب وتتنسم منه النفس أنسام السكينة والرحمة والرضا فإذا وجد القارئ من كتابه ما رجوناه له كان ذلك علامة رضا - ودلالة توفيق وهداية ، وإن كانت الأخرى فحسبه أنه اجتهد ونشد الخير متمثلاً مقالة العبد الصالح - شعيب - ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ .

ذو الحجة 1407هـ — المؤلف

أغسطس 1987م — **محمد سيد أحمد الأقرع**



الباب الأول

أصول الحياة الطيبة

- الأساس المكين
- وصية العدل والإنصاف
- الوصية الخالدة



الفصل الأول

الأســاس المكين

- دين واحد وأصل ثابت
- مسئولية المسلمين عن الإسلام
- قضية الولاء

قال الله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ سورة الشورى : (13) .

وقال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ
نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ
أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ
الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ سورة البقرة : (127- 133) .

***

دين واحد وأصل ثابت

هذه الآيات الكريمة تتحدث عن أصل ثابت وأساس قوى فى إصلاح الأمم والجماعات وهى وصية الله للمرسلين جميعاً مع أممهم بأن يتمسكوا بالدين القيم الذى يصلح حياتهم ويكتب لهم السعادة والهداية ، وصية الله - على وجه الخصوص - لأولى العزم من المرسلين بأن يقيموا الدين على أصوله القوية ودعائمة الثابتة من التوحيد والعبادات من الأوامر والنواهى وكانوا المقدَّمين فى الذكر على غيرهم والمختصين بالأمر دون سواهم لأنهم الكبار والقادة وأصحاب الشرائع

الكبيرة والرسالة وأهل عزم وقوة وكانوا على مستوى المسئولية فأعلنوها صريحة لا لبس فيها ولا غموض « أنهم على رسالة الإسلام وإليه يدعون » .

هذا الإسلام - إذن - هو دين الله الذى أرسل به رسله واختاره لعباده أجمعين إلى يوم القيامة ليصلح به شأنهم ويرشد به ضالهم وينقذ به حائرهم وينير به فؤادهم ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1] .

هذا الإسلام : أساس الحياة الطيبة وسر القوة المكينة ومنبع العزة الدائمة وضمان البقاء الحسن وأمان الخائف الوجل وموئل الآمن المطمئن وطلبة الروح والنفس ورائد القلب والعقل وطريق الله الواضح قال الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] وقال عز شأنه ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] .

هذا الإسلام : من تمسك به فاز ونجا ومن اضطرحه وراء ظهره خاب وخسر لأنه تنكب طريق الله وحاد عن هداية مولاه فصار بعيداً عن ساحة الرحمن قريباً من وساوس الشيطان ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[4] .

---

(1) سورة آل عمران (19 ، 20) .
(٢) سورة الأنعام (153) .
(2) سورة الشورى (52) .
(٤) سورة آل عمران (83) إلى (85) .

هذا الإسلام : هتاف الفطرة الصافية ونداء الطبيعة البشرية منذ فجر الخليقة وإلى قيام الساعة .

قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(1) .

إن الإسلام كلمة الله الأخيرة التى التقى عليها الأنبياء والمرسلون من أول عهد الناس بالحياة فدعوا إلى الله على بصيرة وتحملوا فى سبيل الدعوة إليه فوق طاقة البشر وصبروا على ألوان العذاب والأذى وبذلك قدم أولهم لآخرهم ومهد سابقهم للاحقهم .

جولة قرآنية مع المرسلين

صار الإسلام - بهذا المعنى - الدين العالمى العام الذى تلتقى عليه الإنسانية كلها فى شرق الدنيا وغربها فى شمالها وجنوبها والدعوة الباقية إلى قيام الساعة .

وهذا كتاب الله العزيز يضعنا فى جو عام مع الرسالة العامة والدعوة الدائمة والديانة الخاتمة قال نوح - عليه السلام - لقومه ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(2) بدأ الدعوة إلى الله وتحمل فى سبيلها العنت والشدة من قومه المجرمين رغم ما تحلى به من خلق كريم فبين لهم أنه لم يطلب على نصيحته أجراً لأنه لا ينتظر الأجر إلا من الله وسيبقى على ما هو عليه من الإسلام لله - عز وجل - لأنه دين المرسلين جميعاً وإن تعددت مناهجهم وتنوعت نصائحهم .

ونتابع سيرنا مع القرآن العظيم حتى نصل إلى خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - وابنه إسماعيل فنجد رسالة قد أينعت وتكاملت ووصية تلقى على الأبناء ليأخذوا بها ويلتقوا على آدابها ويقيموا شعائرها وأملاً فى الهداية والطاعة لله ودعوة تكون فى الأحفاد والذرية .

---

(1) سورة الروم (30) . (2) سورة يونس (72) .

هذا إبراهيم - عليه السلام - يرفع قواعد البيت الحرام ويساعده ابنه إسماعيل ويتم رفع القواعد كأحسن ما يكون البناء ثم يكون هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وهكذا كان الإسلام وصية إبراهيم لأبنائه وأيضاً وصية حفيده يعقوب لأولاده ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

ولا ينسى الحفيد - يعقوب - أن يمسك بها أبناءه في آخر عهده بالحياة قال لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾ ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (1) .

وقد عاش « يوسف الصديق » حياته كلها متقلباً بين سراء وضراء ومحن وابتلاءات وفي نهاية المطاف - وبعد أن بلغ أوج العظمة - ختم منهجه بهذا الدعاء المخبت المنيب ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (2) .

ونتابع المسيرة القرآنية حتى نكون عند موسى عليه السلام فنسمع منه هذا النداء لقومه ﴿ يَا قَوْمِ .. إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (3) هذا بيان أعلنه عليهم أن الإسلام طريق الخلاص مما هم فيه من القهر والإذلال والضياع والهوان والتذبيح والتقتيل .

وكذلك كان الإسلام دعوة سليمان بن داود - عليهما السلام - قام بنشرها بين الأمم المجاورة فدعا إلى طريق الله - عز وجل - بلقيس ملكة سبأ حين أخبره « الهدهد » بأن بالقرب منه جماعة يعبدون الشمس من دون الله فيسجدون لها كما يسجد المؤمن لله رب العالمين وليت ذلك كان عن غفلة وعدم دراية وإنما هو خطة متبعة ومنهج عمل ونظام ملك .

(1) سورة البقرة (133) . (2) سورة يوسف (101) .
(3) سورة يونس (84) إلى (86) .

هكذا ملكة تأمر وتنهى وجند يؤمرون فينفذون وأمة تسمع وتطيع فرأى سليمان أن يدعوهم إلى الإيمان بالله وترك هذه المعبودات الباطلة على نحو ما قصه القرآن فى سورة النمل وكان ما أراد وأسلمت الملكة وآمن قومها واهتدى الجميع بهداية الله ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ لها : أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] .

وهؤلاء هم الحواريون يوحى الله تعالى إليهم بأمر ، هو الإيمان بهذه الرسالة ﴿ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا : آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[2] ونطقوا بها مرة أخرى معلنين على الدنيا ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [3] .

من أجل هذا كله !! ثم من وحى الله وهدايته وبأمره وتأييده أرسل الله رسوله محمد - ﷺ - برسالة الإسلام - دين الله العام - ليجدد به شباب الديانات السابقة بعد أن لعبت بها الأهواء والشهوات وحرفها قادتها الدينيون فانحرفوا بها عن سواء السبيل .

أعاد الرسول بهذا العمل العظيم صفاء الدين وقدسيته وجلاله وعظمته فكان رسالة الهدى والنور وأصبح مهيمناً على ما سبق من ديانات وملخصاً لها ومجدداً وشارحاً ما انطمس من تعاليمها وزاد عليها ما احتاجت إليه البشرية فى تطورها فصار بذلك الدين العالمى العام الجامع للهداية والموصل إلى الغاية والخاتم للرسالات والناسخ للديانات ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [4] .

---

(1) سورة النمل (42) إلى (44) .
(2) سورة المائدة (111) .
(3) سورة آل عمران (52) .
(4) سورة الشورى (13) .

فى ظــلال الإســلام

نهض المسلمون - بعد التربية التى رباهم عليها رسول الله - ﷺ - برسالة الإسلام فى حينها ووصلوا بها إلى شرق الدنيا وغربها وأبلوا فى ذلك البلاء الحسن وجاهدوا فى سبيلها حق الجهاد لا يرجون من ورائها إلا رضا الله - عز وجل - وحسن الثواب فى الآخرة فاستحقوا - عن جدارة - هذه التسمية التى كانت دعوة الخليل إبراهيم - عليه السلام - فى غابر الزمان ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ (1) .

وكان هذا الجيل هو خير الأجيال كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - فكانوا أصفا نفس وأصدق عقيدة فقد عرفوا أبعاد هذه الرسالة وحقيقتها وأدركوا أهداف هذا الدين فحملوه دواءً لهذه الدنيا من أسقامها وأدوائها وإصلاحاً لعوجها وانحرافها فكانوا هبة الله لهذه الحياة ومنحته لهذه البشرية .

وهذه صفحات التاريخ تقص علينا من تاريخهم صوراً شتى من العدل والاستقامة والزهد والعفة والقناعة مما جعل منهم نماذج فريدة وأمثلة رائعة من النبل وطهارة النفس ونقاء الضمير والتسامى عن شهوات النفس والتعالى على مغريات الحياة وبهذا نقلوا الدنيا من ظلمة حالكة إلى نورانية صادقة كما خلعوها من وثنية طاغية إلى إسلامية قانتة .

روى مسلم عن عبدالله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ، فرده فلما كان من الغد أتاه ، فقال : يا رسول الله !! إنى زنيت ، فرده الثانية فأرسل رسول الله إلى قومه ، فقال : **أتعلمون بعقله بأساً ؟ تنكرون منه شيئاً ؟**

---

(1) سورة الحج (78) .

فقالوا : ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال : فجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله !! إنى قد زنيت فطهرنى وأنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله !! لم تردنى لعلك أن تردنى كما رددت « ماعزاً » فوالله إنى حبلى قال : « **أما لا ، فاذهبى حتى تلدى** » قال : فلما ولدته أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته قال : « **فاذهبى وأرضعيه حتى تفطميه** » فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : يا نبى الله !! قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه إياها ، فقال : « **مهلاً يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له** » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وإذا كان رضا الله – عز وجل – هو الدافع الذى حرك هذين وهانت عليهما الحياة من أجل هذا الرضا فإن التعلق بغيرها من الأموال والأولاد سيكون من سقط المتاع ولن تلتفت إليه هذه النفوس الأبية لأنها شغلت بما هو أكبر منها .

حدث الطبرى قال : « لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباص أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباص فقال : – والذين معه – ما رأينا مثل هذا قط ما يعد له ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئاً فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله !! لا أخبركم فتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس » .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سمو النفس وترفعها عن حطام الدنيا فضلاً عن الاستهانة بزخارفها وشهواتها فلم تغرهم هذه الزخارف ولم تبهرهم هذه المظاهر : هذا « ربعى بن عامر » رسول « سعد بن أبى وقاص » إلى « رستم » قائد

الجيش الفارسى فقد أرسله سعد إليه قبيل حرب القادسية فدخل على رستم فوجده جالساً على سرير من ذهب وعليه تاجه المرصع باليواقيت الثمينة وقد زين المجلس بكل زينة وأقبل الرجل بثيابه الصفيقة ولم يزل راكباً حتى داس حصانه على طرف البساط ثم نزل وعليه سلاحه ودرعه فقال له بعض الحاضرين : ضع سلاحك فقال : إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت فقال رستم : إئذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق حتى خرق عامتها فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

هذا ما فعله الإيمان بالناس وهذا أثر الإسلام فى النفوس إنها تكبر به وتعظم بشأنه وتأنف أن تنحنى إلا لله خالقها ورازقها ومحييها ومميتها وكان أن أدبوا بذلك جبابرة الدنيا وأذلوا كبرياءهم ، عن أبى موسى قال : « انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة بن الوليد عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك ، فقال جعفر : لا نسجد إلا لله » .

إن الإسلام إذا تمكن من النفس فإنه يدفعها إلى المجد فى الحياة والاستشهاد فى سبيل الله وتصبح الحياة كلها لا تساوى شيئاً مما أعده الله لعباده الصالحين ، ونسوق مجموعة من هذه التضحيات تدل على ما كان عند القوم من شجاعة نادرة واستهانة بهذه الحياة وبهرجها :-

1 - أراد فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله يوم الفتح وقد سمع بدخوله مكة وتسليم قريش فأخذ سيفه ودخل فى الناس فرآه رسول الله - ﷺ - فقال : « **أفضالة** » ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله !! قال : **ماذا كنت تحدث به نفسك** ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله ، فضحك النبى - ﷺ - ثم قال : « **استغفر الله** » ثم وضع يده على صدره فاطمأن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده

عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها (كان يطيل الجلوس عندها وكان قد خرج من عندها فانتظرته حتى يرجع) فعرضت عليه إكمال الحديث والجلوس فقال :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا يأبى عليك الله والإسلام

لوما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بينا والشرك يغشى وجهه الإظلام

2 - روى مسلم عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال : سمعت أبى - رضي الله عنه - وهو بحضرة العدو - يقول : قال رسول الله - ﷺ - « **إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف** » فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى !! أأنت سمعت رسول الله - ﷺ - يقول هذا ؟ قال : نعم فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب حتى قتل » .

3 - قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبى - ﷺ - فآمن به وتبعه فقال : أهاجر معك فأوصى به بعض أصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله - ﷺ - شيئاً فقسمه وقسم للأعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهورهم فلما جاء دفعوه إليه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قسم قسمه لك رسول الله - ﷺ - فأخذه وجاء به إلى النبى - ﷺ - ، فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « **قسم قسمته لك** » قال : ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى بسهم ها هنا - وأشار إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة فقال : « **إن تصدق الله يصدقك** » ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبى - ﷺ - وهو مقتول - وقد أصابه السهم حيث أشار - فقال : « **أهو هو ؟** » قالوا : نعم ، قال : « **صدق الله فصدقه** » ثم أضجعه النبى فى قبره وقال : « **اللهم إن هذا عبدك خرج مجاهداً فى سبيلك وقتل شهيداً وأنا على ذلك شهيد** » .

4- روى مسلم « أن رسول الله - ﷺ- قال يوم بدر : « **قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض** » ، فقال عمير بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « **نعم** » قال : بخ بخ . . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : « **ما يحملك على قولك بخ بخ** » ؟ قال : لا ! ! والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال : « **فإنك من أهلها** » ، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل » .

5 - كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله - ﷺ - إذا غزا فلما توجه إلى أحد أراد يتوجه معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله إن بنىّ هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ووالله إنى لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتى هذه الجنة فقال له رسول الله - ﷺ - : « **أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد** » وقال لبنيه : « **وما عليكم أن تدعوه لعل الله - عز وجل - أن يرزقه الشهادة** » فخرج مع رسول الله - ﷺ - فقتل يوم أحد شهيداً » .

6 - قال أنس بن النضر لرسول الله - ﷺ - بعد غزوة بدر : يا رسول الله ! ! غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرينَّ ما أفعل ، فلما كانت غزوة أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك عما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فقابله سعد بن معاذ فقال له : يا سعد الجنة ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد ثم تقدم وصار يقاتل حتى استشهد ووجد فى جسده أكثر من ثمانين ما بين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بالسهم ووجد وقد مثل به المشركون فما عرفه إلا أخته بشامة أو ببنانه قال أنس بن مالك : كنا نعد هذا وأمثاله من الذين نزل فى شأنهم قول الله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾ هذه الصورة مذكورة فى كتب السيرة والبداية والنهاية والتفسير .

دواء للبشر وسعادة للحياة .. ولكن !!!

فلا عجب أن وجدت الإنسانية - لأول مرة فى تاريخها - فى ظل هذا الإسلام سكينة وراحة وأمناً ورحمة وحرية وكرامة وعزة وقوة وهدوءً ومساواة وإنصافاً وعدلاً ورأت مسلمين ينفذون أحكام هذا الدين على أنفسهم قبل أن يأمروا بها غيرهم ويحتكمون إليه لا إلى غيره وأحلوه فى أنفسهم فى المحل الأرفع ، قال تعالى **﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾**(1) .

وعاشت البشرية فى ظل هذا الإسلام حياة الرخاء والأمن والعزة والعدالة وعاش المسلمون حكاماً لهذا العالم دهراً طويلاً سعد فى عهدهم سعادة كاملة وأمن الناس على دماءهم وأموالهم وأعراضهم وتحققت لهم العدالة بأسمى معانيها بين الأفراد بعضهم وبعض على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم من جانب وبين الأفراد والحكام من جانب آخر ، روى ابن إسحاق فى السيرة أن رسول الله - ﷺ - وقف يعدل الصفوف فى يوم بدر بقضيب كان فى يده فمر بسواد بن غزية الأنصارى وهو خارج من الصف فطعنه بالقضيب فى بطنه وقال له : « **استو يا سواد** » فقال سواد : أوجعتنى يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فاقد لى ، فكشف الرسول عن بطنه وقال : « **استقد يا سواد** » فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال النبى ﷺ : « **ما حملك على هذا يا سواد** » ؟ فقال : يا رسول الله لقد حضر ما ترى - يعنى موطن الشهادة فى سبيل الله - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك » فدعا له رسول الله ﷺ بخير » .

وقد قص التاريخ شيئاً كثيراً من صور العدل مع الصحابة والتابعين : -

هذا المأمون بن هارون الرشيد الخليفة وابن الخليفة وحفيد الخلفاء دعى إلى

(1) سورة المائدة (15 ، 16) .

مجلس القضاء يوماً مع رجل بين يدى « يحيى بن أكثم » قاضى بغداد فدخل المأمون وخلفه خادمه يحمل طنفسة كى يجلس عليها الخليفة فرفض القاضى أن يميز الخليفة عن خصمه وقال : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فاستحيا المأمون ودعا للرجل بطنفسة أخرى وجلس عليها » .

حسب المسلمين - إذن - أنهم حكموا الدنيا الكبيرة - باسم الإسلام - قروناً طويلة لم تمل فى أيديهم موازين العدل والاستقرار وعاشت البشرية آمنة مستقرة لم تعرف الحروب العالمية التى أكلت الأخضر واليابس وأتلفت القناطير المقنطرة من الأموال وأهلكت الكثير من الأنفس وخربت العديد من البيوت والمدن والقرى وقضت على العلاقات الإنسانية بين الغالب والمغلوب .

وحسب هذا الجيل الذى رباه رسول الله على هذا الدين أنه رفع راية الحق والعدل إلى الأمم المقهورة والشعوب المهضومة - وكان أميناً عليها - فأصلح الخلل الذى تواضعت عليه الدنيا كلها فى نواحى الحكم والمال والمجتمع - كما كان حارساً لها - فقد كان الحكم مدعاة الغرور وطريقاً إلى الصلف والاستعلاء وسبباً من أسباب القهر والإذلال والجبروت للفرد والجماعة كما كان المال بوسائله وموارده فى يد الحاكمين وليس للمحكومين منه شىء مما أوجد طبقة الأغنياء الموسرين وطبقة الفقراء المعسرين وكان ما كان من وجود صراع مستمر بين طبقات الأمة الواحدة ولأول مرة فى التاريخ وفى ظل الإسلام استمعت الدنيا شرقاً وغرباً من يقول بعد أن تولى الحكم : أيها الناس !! إنى وليت عليكم ولست بخيركم إن أحسنت فأعينونى وإن أساءت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

وروى ابن سعد عنه فى طبقاته فقال : كان أبو بكر ينفق من استغلال ملكه وعمل يده وقد ظل ستة أشهر بعد خلافته وهو على حاله هذه لا ينفق على نفسه من

بيت مال المسلمين شيئاً فأصبح يوماً وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق فقال : ماذا تصنع وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فلما ذهب إليه قال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف وإذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره ، ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه » .

صار الحكم فى الإسلام - بهذا الفهم - مسئولية يسأل عنها الحاكم أمام الله يوم القيامة وقد عبر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن هذه المسئولية فقال : لو أن بغلاً عثر بالعراق لحسبت عمر مسئولاً عنه لم لم يُسَوِّ الطريق » وكتب إلى الولاة ذات يوم « اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا عند الغضب قوموا بالحق ولو ساعة من نهار » .

ومن هنا أصبح المجتمع فى ظل الحكم الإسلامى الرشيد أسرة واحدة عمادها التراحم والمودة وأساسها التقارب والمحبة فلا عصبية ولا جنسية ولا صغير ولا كبير ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ و « **لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى** » .

جاء الإسلام - إذن - إلى البشرية بعد انتظار طويل وشوق كبير وكانت قد تطلعت إلى المنقذ الذى ينقذها مما تردت فيه وانحدرت إليه فسعدت - بمجيئه - بعد شقاء وأمنت بعد خوف وتقدمت بعد تأخر وصعدت بعد هبوط وعاشت عليه وبه زمناً طويلاً ناعمة البال هادئة الحال ولو أنها ظلت متمسكة بمبادئه قائمة بأوامره لكان لها اليوم شأن كبير وحضارة راقية وصوت مسموع فى المجتمع الدولى .

إن المسلمين فى العصر الحاضر أحوج إلى هذا الدين من غيرهم كى يعود إليهم عزهم ويسهموا فى تقدم البشرية ورفاهيتها وعندئذ سوف تسعد بهم الدنيا ويقدموا لها ما هى فى أمس الحاجة إليه من قيادة حكيمة وروحانية صافية وحضارة رحيمة وعلم يبنى الحياة ولا يدمرها وعمل ينفع الإنسانية ولا يضرها لأنه يدفع إلى مجد

الحياة والفلاح فى الآخرة قال الله تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[1] .

المسلمون قادة هداية وإصلاح

ولكن !! لماذا كان المسلمون - بهذه المثابة - أملاً مرتقباً من بين أجناس الأرض كلها للقيام بهذا الدور العظيم والتغيير الشامل الذى عدلوا به حركة التاريخ ؟ .

والجواب عن هذا السؤال : إن العرب حين دخلوا فى الإسلام كانت لهم مجموعة من الخصائص لم تتوفر فى غيرهم : فقد فهموا أهداف هذه الرسالة وعرفوا أنها للناس جميعاً فهم أمامها سواء يستوى أمامها العربى وغيره ، فعن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من العجلان** » رواه البزار

وبهذا الفهم لحركة الإسلام انطلق المسلمون يفتحون الممالك ويدعون الأمم والشعوب إلى هذه الرسالة مهتدين فى ذلك بتوجيهات النبى - ﷺ - كما جاء فى الصحيحين قال : « **تكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وتصديق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر وغنيمة** » ، وروى أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال النبى - ﷺ - : « **سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله** » وروى الترمذى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - مر رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله - ﷺ - فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : « **لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ألا**

(1) سورة إبراهيم (2) .

تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فوق ناقته وجبت له الجنة » .

مع ما تقدم ساس المسلمون الناس بكتاب منزل من عند الله رب العالمين فلم يكونوا دعاة جنسية ولا رواد وطنية أو قومية ولم يحتكموا إلى قانون أرضى ولا إلى شريعة من وضع البشر حتى تتحكم فيهم الأهواء وتخلط عليهم السبل وتبتعد بهم المناهج عن الغاية وبهذا أحيوا دولة الفضائل السامية والآداب الكريمة وكان الفضل فى ذلك للتربية القومية التى رباهم عليها رسول الله منذ اللحظة الأولى من بعثته فلما حكموا أمماً قهرها الاستبداد وطحنها الاستعباد وأذلها الجبروت أمن الجميع فى ظل هذا الحكم العادل القائم على خشية الله وعدم التطلع إلى مغريات الحياة والزهد فى متاعها ووجد الناس معانى النبل من العفة والقناعة والأمانة والورع والإيثار .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الصادقين زهدوا فى زخرف الحياة وتورعوا عن زينتها خشية الغرور والفتنة فقد كانوا أدرى الناس بحركتها فلم ينعزلوا عنها ولم يغرقوا فيها : لم يعيشوا على هامشها حتى يتخلصوا من متاعها ولم يغرقوا فيها حتى يندموا على التقصير فى الواجب لها : لم يفروا من تكاليفها حتى يسبقهم الغير إلى قيادتها وإنما عرفوا دورهم فيها فطرحوا مساوئها وأخذوا خير ما فيها وقادوا سفينة الحياة إلى شاطئ النجاة والهداية والإيمان وبذلك أنشأوا مجتمعاً متزناً عرف مطالب الجسم والروح وربط الدنيا بالآخرة .

بسبب هذا الاستعداد النفسى الطيب ومن هذه التربية الصحيحة أعطوا البشرية ما هى محتاجة إليه : أعطوها عقلاً تحرر من الأوهام والظنون والخيال فاستقام الفكر وتحرر العقل من سلطان الخرافة والذلة وتطهر من أدران الوثنية والعبودية لغير الله وكانت مادة عقل وذكر وعلم وفكر من من أكثر المواد وروداً فى القرآن الكريم ونعى على بلادة الإحساس والغباء وقلة الوعى وجعله طريقاً إلى النار ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ**

كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (1) .

وأعطوا البشرية قلباً ينبض بالخير ويفيض بالرحمة ويمتلئ بحب الناس : تعمره التقوى وتغشاه الإنابة : يبكى من خشية الله ويوجل من غضبه .

وأعطوا البشرية المرأة المسلمة المؤمنة العابدة التى صارت هى والرجل سواء أمام تعاليم الإسلام وبذلك أصلحوا نصف المجتمع بعد أن كان ضائعاً مهملاً يشك فى إنسانيته ولا يهتم بشأنه ونهض المجتمع على أساس قوى من تعاون كل من الرجل والمرأة فكانت الأسرة المسلمة آية من آيات الله فى إثراء المجتمع بالأجيال المؤمنة النافعة التى أسهمت فى ركب التقدم البشرى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) .

من الجاهلية إلى الإسلام

ولقد كان الناس سائرين على طريق موحشة من التفرق والانقسام والحرب والغارات حتى نشأت عوامل الاتصال بين الأمم والشعوب ووجدت وسائل التفاهم بينها ، ونجمت حالات ملحة تدعو إلى تبادل المنافع والثمرات وتداول المقاصد والخبرات فنشأ بذلك شعور التعارف والتفاهم بين الدول ودعا واجب التكافل والتضامن بين الأفراد فافتتح ذلك عهداً جديداً فى حياة الأمم والشعوب .

ومازالت هذه العوامل تقوى وتشتد وتدفع بالأمم بعضها نحو بعض وتهيئ الإنسانية لعهد التجمع والتآلف على المبدأ الواحد والأصل الجامع ثم ازداد هذا الشعور قوة وشدة على مر الليالى والأيام وكر القرون والأعوام ومازال ينمو ويزداد حتى جاء عهد النبى محمد - ﷺ - فتحول الشعور الخيالى إلى حقيقة واقعة فكان عهداً جديداً للإنسانية الحائرة المعذبة أن تتحول نحو العدل والمساواة وتأخذ بأسباب الحضارة والازدهار .

---

(1) سورة الأعراف (179) . (2) سورة الروم (21) .

وكان مجئ الرسول محمد - ﷺ - بهذه الرسالة إلى البشرية نعمة من نعم الله عليها فقدعاش الناس أزماناً طويلة متفرقين فى الغايات ومتخالفين فى المبادئ والمناهج وكان عقل الإنسان مصاباً بلوثة الجهل والخرافة والباطل والوثنية يتخذ من هذا التفرق والانقسام والتناحر والتفرق ذريعة لتوسيع شقة الخلاف والتقاطع ، كان مجئ الرسول - من غير شك - معجزة باهرة من معجزات الإسلام أن يساير طبيعة الناس بما جاء به من عقائد سليمة وعبادة صحيحة ومعاملات طيبة وأخلاق حسنة وكان هذا الدين آخر الأديان السماوية إلى البشرية رضيه الله ديناً لعباده على اختلاف أجناسهم وطوائفهم وتجلت آياته فى النفس الإنسانية وفى الآفاق الكونية بما أودع فيهما من آثار ودلائل تدل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى وكان من أجل ذلك أنه لا حجة لأحد من الناس - كائناً من كان - أن يتخلى عن هذا الدين ويتنكب طريقه ويرتكب نواهيه ويبتعد عن أوامره ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾ (1).

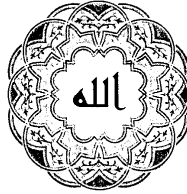
من أجل هذا كله كان الإسلام خاتماً للديانات الإلهية خالداً على الزمن لأنه دين الفطرة الصافية وعقيدة الإنسانية السامية فاعترف بالعقل وأشركه فى فهم شريعته وأحكامه وتردد فى كثير من آيات الكتاب العزيز ما نبه على سمو منزلته وعلو مكانته وعظم فضله من مثل قوله تعالى : ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾(2) وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾(3) وقوله تعالى : ﴿ **لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾(4) وقوله عز شأنه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾(5) فصار الرجل بهذه الفطرة الصافية والعقل السليم إنساناً سوياً ، لكن العالم اليوم أصبح بلا قيادة تقوده إلى الخير والرشاد والهدى والصلاح

(1) سورة هود (112، 113) .
(2) سورة الحشر (2) .
(3) سورة آل عمران (190) .
(4) سورة النحل (67) .
(5) سورة الروم (21) .

والنبل والخلاص والطهر والنقاء ومن أجل ذلك عاش مشتت الفكر مبعثر القوى موزع الإرادة لا فكر له فى غده ولا هدف له فى حاضره ولا أمل له فى مستقبله وسيظل هكذا حتى يعود مرة أخرى إلى هداية الله ويطرح أسباب الشحناء والبغضاء والفسوق والاستبداد ﴿ قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] .

فإذا كان للناس – فى آخر عهدهم بالأديان المنزلة من عند الله – أن يجتمعوا على دين واحد يؤلف بينهم من عداوة ويوحد بينهم من فرقة ويجمعهم من شتات ويجعلهم على كلمة سواء « فهو هذا الإسلام » .

وقد تبين ذلك بعدما ظهرت – على مر القرون – منزلته واتضحت للأفهام أهدافه وآياته وعرفت مراميه ومعجزاته قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2] وقال عز وجل ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .



(1) سورة الأعراف (158) . (2) سورة فصلت (53) .
(3) سورة النمل (88) .

مسئولية المسلمين عن الإسلام

وإذا ظهرت عظمة الإسلام على هذا النحو وتجلت آياته وآثاره أمام أصحاب العقول السليمة فقد وجب على المسلمين أن يعملوا كثيراً وأن يفكروا طويلاً فإن المسئولية جسيمة و وجب على المسلمين أن يعرفوا دورهم وأن يجددوا عزمهم وأن يتقدموا لحمل هذه الرسالة من جديد : وإنها لمسئولية كبيرة وإنهم ليس لهم الآن من الأمر شئ فى المعترك الدولى ولن يكون لهم الشأن الذى يذكرون به إلا بحمل هذه الراية . . راية الإسلام فقد كانوا به أمة وكانوا به أصحاب رسالة وكانوا به حملة فكر ودعوة وكانوا به رواد حضارة وهداية ألم يقل الله عز وجل ذلك فى كتابه ؟ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[1] لم يكونوا أمة من شتات القبائل العربية ولم يكونوا جماعة من هذا الركام المتناثر إلا من أجل هذه الرسالة ولم يؤلفهم الله إلا من أجل هذه الهداية ولم يجعلهم الله خير أمم الأرض إلا من أجل هذه الشهادة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2] .

فلم يبعث الله عز وجل - وهو أعلم بعباده - بعثاً أو يوجد جماعة من فرقة أو يجعل أمة من شتات ليزيد بها أمم الأرض واحدة أو لتسابق الناس على حطام الحياة من زراعة وتجارة وغيرها !! فما أكثر ما كان موجوداً على الأرض من أمم وزراع وتجار تزدحم بهم جنبات الأرض !!! .

فما كان المسلمون - إذن - إلا من أجل هذا الدين إحياءً للنفوس الخامدة وقياماً بواجب الرسالة الهادية وهذا ما يجب أن يعلمه مسلمو العهد الحاضر .

صار لزاماً على المسلمين أن يدركوا عظم المسئولية عن هذا الدين ويفهموا ضخامة الأمانة التى كلفوا بها إن أرادوا العزة مرة أخرى ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[3] .

---

(1) سورة البقرة (143) . (2) سورة آل عمران (110) .
(3) سورة محمد (38) .

دعائم ... وأسس

وجب على المسلمين أن يعرفوا مسئوليتهم وإنها لفائدة تعود عليهم قبل أن تعود على غيرهم وأمر جد خطير له تبعاته وأبعاده من حيث إنه يتطلب بذلاً وتضحية ويقظة واستعداد حتى يوصل إلى مرضاة الله تعالى .

إن المسئولية عن هذا الدين تتطلب معرفة عميقة به وتفقهاً فيه وعلماً واسعاً بأسراره ونواحيه - أولاً - وتتطلب استمساكاً بأسبابه - ثانياً - وتتطلب دعوة إليه توجه إلى الأمم والشعوب فى كل زمان ومكان - ثالثاً - وتتطلب دفاعاً عنه وجهاداً فى سبيله - رابعاً وأخيراً :

تتطلب المسئولية من المسلمين أن يتفقهوا فى هذا الدين وأن يدركوا أسراره وأبعاده حتى يفهموا أنه حركة نشدت للناس حياة طيبة ، حركة تجعل من المسلم عضواً إيجابياً يسهم فى قيادة البشرية إلى الخير والحق وبذلك يعلم عن طريق هذا الفهم والإدراك عبث المفسدين ووساوس الضالين وخداع المنافقين وكم لهم من ألاعيب أوقعت كثيراً من الناس فى شرها وجعلت من أبناء الأمة الواحدة طوائف وشيعاً وأحزاب **﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾**(1) .

والتفقه فى الدين جانب مهم لا يستقيم الأمر بدونه ولا يستطيع المسلم أن يواكب حركة الحياة إلا به قال الله تعالى **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**(2) وفى الصحيحين عن أبى موسى - رضي الله عنه - قال : قال النبى - ﷺ - : « **مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل**

(1) سورة الأنعام (121) . (2) سورة التوبة (122) .

من فقه فى دين الله فنفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

من التفقه فى الدين أن يدرس المسلم أدواء البشرية ويعرف آلامها وآمالها وما يدبره الأعداء من الكيد لها وما يطرحونه من شرور وآثام وما يروجونه من أفكار هدامة ونحل باطلة وبذلك يستطيع أن يطب بإسلامه لهذا كله وهو الواجب فهمه من كلمة « التفقه فى الدين » وهو ما ينبغى أن يعرفه القائمون على هذا الأمر وهم إن فعلوا فسوف تكون مهمتهم عظيمة نافعة وعملهم وعلمهم مأجور من الله سبحانه وتعالى ومكانتهم رفيعة عنده ، روى البخارى ومسلم وابن ماجة عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين** » ، وروى البزار والطبرانى عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين وألهمه رشده** » .

وتتطلب المسئولية من المسلمين : أن يعتصموا بهذا الدين وأن يتمسكوا به وأن يستقيموا على طريقه ويجعلوا من الرسول قدوة لهم فى هذا الأمر الخطير : وهو خير قدوة هدى الله به من الضلالة وأنقذ به من الهلكة وأرشد به من العمى وهذا أمر الله تعالى للجميع بهذا الخصوص قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾[1] أرأيت مكانة أعظم من هذه المكانة وشرف أسمى من هذا الشرف وذكراً بين الأمم والشعوب أرفع من هذا الذكر ؟ أن يلتف المسلمون حول هذا النبع الفياض وأن يعتصموا به وأن يكون لهم من هذا الوحى خير هاد وأكبر زاد وبذلك يستطيعون أن يدفعوا عنهم كيد الأعداء قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾[2] ولا شك أن هذا الاعتصام هو شاطئ الأمان الربانى جعل الله فيه الأمن من الخوف والهداية من الضلال والسعادة بعد الشقاء والنصب ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ**

---

(1) سورة الزخرف (44) . (2) سورة الجاثية (18، 19) .

هُدىً إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1] .

وتتطلب المسئولية من المسلمين - وقد تفقهوا فى الدين وفهموا أبعاده وغاياته وسبروا أسراره وتوجيهاته واعتصموا به وتمسكوا بآدابه - أن يدعوا الناس إليه وأن يحملوا راية هذه الدعوة ويبذلوا فى سبيلها أعز ما عندهم كما فعل سلفهم من قبل .

صار واجب التبليغ والشرح والبيان والدعوة - بعد هاتين الجولتين - حتماً مقضياً وصار حسن العرض لهذا الدين على الناس والحجاج عنه والتزام جادة الحق والحكمة فى البرهان على جدرانه وأحقيته أن يسود هذه الأرض حتى يعبدها لله عز وجل من أوجب الواجبات كى يقبل الناس عليه ويهتدوا به ويلوذوا إليه ويخلصوا له ويكونوا ذادةً عنه .

وهذه آية من كتاب الله تضع دستور هذا الواجب العظيم قال تعالى : **﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾**[2] .

وضحت الآية الكريمة ما يجب فعله كى يقبل الناس على هذا الدين وهو أمر له ما بعده وواجب يفتح له طريقاً إلى القلوب حتى تحيا عليه .

وليكن معلوماً : أن القيام بهذا الواجب من أعظم الأعمال وأنبلها فإذا افتخر الناس بأنهم من طائفة (كذا) أو من جماعة (كذا) وإذا ما حرص الناس على الظهور بأنهم من أرباب الأحساب والأنساب والأموال والعقارات فإن الواجب على المنتسبين للإسلام أن يسلكوا طريقاً آخر هو : طريق الحق المبين : رضا بما أعده الله لهم من نعيم مقيم وحسبهم ذلك شرفاً ومجداً وكفاهم ذلك حسباً ونسباً :

أبى الإسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

(1) سورة آل عمران (101، 102) .

(2) سورة النحل (125) .

والله عز وجل بين فضل هذا العمل وما يجب أن يكون عليه القائمون بأمره من صفات تؤهلهم لحمل الرسالة التى يضطلعون بها قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1]هذه أمور ثلاثة كبيرة وسامية هى منطق الداعية وخلقه فلئن دعا الناس إلى نحلة باطلة فهو داع إلى رسالة ربانية وهو - بالتالى - أقوى منهم حجة وأوضح طريقة وأبين برهاناً وأقوم قيلاً . . ولئن تمدح الناس بأنهم يعملون لمذاهب أرضية ويعتنقون فلسفات وضعية فهو قائم على عمل من أعمال الصلاح والهدى : هو هداية البشرية وإصلاح عوجها ولئن تخاذل الناس وقعدوا عن واجب التضحية والبذل الذى قدمه الرعيل الأول من أبناء الأمة الإسلامية ، فهو يؤكد أنه من هذا الرعيل سالك طريقهم رافع رايتهم مؤمن بما آمنوا به يقولها مؤكدة مفومة واضحة « إننى من المسلمين » لا لبس فيها ولا غموض ولا انحراف بها ولا تحريف ولا تخاذل عنها ولا قعود ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [2] .

ومن هذه الكلمة « إننى من المسلمين » وجب على الدعاة خاصة وعلى المسلمين عامة أن يقولوها للناس حتى تسمع بهم الدنيا ، وجب عليهم أن يرسلوها عالية مدوية تدوى بها جنبات الأرض شرقاً وغرباً دون خوف أو وجل ومن غير تقاعس أو تأخير لأنهم يملكون أسسها وأصولها وحضارتها وعلمها وتاريخها ومجدها يملكون رصيداً روحياً أحيا أمة من عدم . . عماده كلام الله وسنة رسول الله ، يملكون حضارة قامت على أساس مكين من العلم الغزير الذى فاض على البشرية فبدد غياهب الظلمات واكتسح عوائق الجهالات وفتح منافذ العقول ثم هم ينتسبون إلى هذا المجد العريق الذى صنع هذا التاريخ المشرق الذى لم يعرف لأمة من أمم الأرض كلها .

وتتطلب المسئولية عن هذا الدين من المسلمين - أخيراً - بعدما تقدم بيانه أن يدفعوا عنه غائلة الأعداء المتربصين وأن يذودوا عن حماه وهو جانب من جوانب المسئولية له أثره وخطره .

(1) سورة فصلت (33) . (٢) الأنعام (161) .

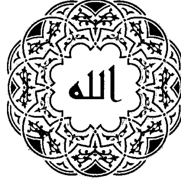
فإن هذا الدين هو قوام النفس وأساس وجودها الأصيل ومصدر حياتها الدائم تحيا به وتموت من غيره ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾(1) ومن هنا وجب على المسلم أن يحمل روحه ويبذل ماله انتصاراً له وقياماً بواجبه عليه وإحياء للبذل والتضحية والفداء دفاعاً عن الشرف والحياة والمال والدار وله على ذلك ما أعده الله عنده من أجر الشهداء من حياة طيبة راضية ونعيم مقيم ، روى الترمذى وأبو داود والنسائى عن سعيد بن زيد أن رسول الله - ﷺ - قال : « **من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد** » .

هذا هو طريق الحياة الآمنة فى الدنيا والفلاح والسعادة فى الآخرة أما النيات المدخولة التى انعقدت على كدر وظلمة فلن تحفظ ديناً ولن تنصر عقيدة وهو ما نبه عليه الحديث الشريف فى الصحيحين ، عن أبى موسى - رضي الله عنه - أن أعرابياً أتى النبى - ﷺ - فقال يا رسول الله : « الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه » وفى رواية « يقاتل شجاعة ويقاتل حمية » وفى رواية « يقاتل غضباً فمن فى سبيل الله ؟ » فقال رسول الله - ﷺ - : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** » فوجبت إذن - أن تكون النية خالصة لله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(2) قال الحسن : مر أعرابى على النبى - ﷺ - وهو يقرأ هذه الآية فقال : كلام من هذا ؟ قال : كلام الله فقال : بيع والله مربح لا نُقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو واستشهد » .

وكان المسلمون الأولون على مستوى هذه المسئولية فهماً وعلماً حركة وعبادة ، سلوكاً ونظاماً وقاموا بها وتحملوا تبعاتها ولم يقصروا فى شيء منها فكانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله وأقربها إلى مرضاته ، قال مقاتل : قال عثمان بن مظعون

(1) سورة الأنعام (122) . (2) سورة التوبة (111) .

لرسول الله - ﷺ- : لو أذنت لى فطلقت خولة وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ولا أنام بليل أبداً ولا أفطر بنهار أبداً » فقال رسول الله - ﷺ - : « **إن من سنتى النكاح ، ولا رهبانية فى الإسلام إنما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وخصاء أمتى الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتى أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتى فليس منى** » فقال عثمان : والله لوددت يا نبى الله أى التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها ، فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (1) بهذا نستطيع أن نقول : إن مسئولية المسلمين عن هذا الدين قد اتضحت وظهرت وتكشفت أبعادها وجوانبها وفيها عزة الأمة ومجدها إن أرادوا عزة ومجداً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (2) .



(1) سورة الصف (10) . (2) سورة محمد (7) .

قضية الولاء

عرفت مما سبق أن هذا الدين : هو دين الله عز وجل أرسل به رسله . . وعرفت أنه رسالة الله إلى خلقه . . وعرفت أنه خاتم رسالات الله إلى الدنيا حمل رايته خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم . . وعرفت أن المسلمين لم يكونوا إلا من أجل هذه الرسالة جمعهم الله من شتات القبائل العربية لحمل رايتها . .

ومن هنا عظمت مسئوليتهم ومن هنا كثرت تبعاتهم تبعاً لتعدد الجوانب المختلفة لها ومن هنا - أيضاً - طلب من المسلمين أن يكونوا جماعة متفردة . . تتميز عن غيرها وتتأبى على عوامل الإغراء والتبعية لهذا الغير وتتواصى فيما بينها على الحق والخير والفداء والصبر وأن يكون ولاؤهم لله منزل الرسالة - **أولا** - واتباعهم وحبهم لرسول الله الذى حمل الرسالة - **ثانيا** - واعتصامهم بحبل الله وانتمائهم للرسالة - **ثالثا** - وهذا يعنى أن يكون الولاء لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين وسيكون هذا هو طريقهم الوحيد لا طريق سواه .

ولاؤهم لله : يعنى الإذعان لشرعه والقيام بحقه والدعوة إليه : يعنى المواظبة على طاعته والإخلاص فى عبادته والإيمان بقدرته والاستغراق فى معرفته والقرب منه والحمد له والثناء عليه قال تعالى ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (1) فكل من كان تقياً كان ولاؤه لله لا يأنس إلا فى القرب منه ولا يتوكل إلا عليه ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : عن الله - عز وجل - أنه قال فى الحديث القدسى : « **إن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم** » .

وولاؤهم لرسول الله : يكون بحبه والعيش معه والإيمان به والدفع عنه والاهتداء بسنته كما قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ : إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**

(1) سورة يونس (62) .

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[2] وقال صلى الله عليه وسلم : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به** » .

والولاء لله عز وجل والولاء لرسول الله عليه الصلاة والسلام بهذا المعنى يجعل لصاحبه العناية الربانية والرعاية والحفظ والتأييد والنصر والإلهام والهدى والتوفيق والرشاد والخروج من ظلمة المعاصي والكفر إلى نور الإيمان الحق واليقين الصدق ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[3] وقال تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4] وسوف تكون نهاية الانحراف عن طريق الولاء لله ولرسوله أن يدمر الله على كل منحرف ومتمرد فقد قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[5] وإذا كان الولاء لله ورسوله له هذا المعنى القوى فإن أثره يظهر أول ما يظهر وفضله يتضح أول ما يتضح فى أنه يجب على المسلم أن يوالى أخاه المسلم فى أى مكان يكون فيه من أرض الله وذلك بالتأييد والمحبة والدعاء والنصرة والعطف والترابط والإخاء والتعاون والمودة والإخاء والتضامن والتكافل والفداء والجهاد فى سبيل العقيدة والدين لأن المسلمين كما قال النبى - ﷺ - فى شأنهم : « **تتكافا دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم** » وكما قال عليه الصلاة والسلام : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً** » رواه الشيخان .

وعلى هذا فإن الولاء بين جماعة المسلمين يتضمن معانى النصرة والأخوة والمودة والمساعدة بالوقوف معاً فى أوقات الشدائد والنكبات قال تعالى :

---

(1) سورة آل عمران (31) .
(2) سورة النساء (80) .
(3) سورة الأعراف (196) .
(4) سورة البقرة (257) .
(5) سورة المجادلة (20) .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) .

وإذا ثبت الولاء لله ولرسوله على هذا النحو ووجب لجماعة المسلمين كما ظهر من كلام الله فقد وجب الوقوف عنده ثم الاستمساك به لأنه طريق الله وما عداه فهو ولاء للشيطان وصداقة للكافرين وميل إليهم وكل ذلك باطل من حيث إنهم يدعون إلى الشر والطغيان والاستبداد والاستغلال والاعتداء على حرية الشعوب وكرامتها وأمنها واستقلالها وأرضها وثرواتها ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (2) .

حتمية ضرورية لتوحيد الصفوف

وعلى ذلك فقد صارت الموالاة الصادقة بين المسلمين فى شتى بلاد العالم حتمية ضرورية حتى توحد بين صفوفهم وتجمعهم على توجيهات القرآن من جديد وتجعلهم أهلاً لحمل هذه الرسالة التى ناط الله بها إنقاذ البشرية فى عهدها الأخير وأصبح ذلك من ألزم الواجبات عليهم بعد أن صار واضحاً أن أعداء الإسلام يسعون جاهدين للقضاء عليه أخيراً بعد أن تمالئوا على الخلافة فى تركيا فقوضوا أركانها وأتوا عليها من القواعد ومحوها من الوجود ، عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أن عبادة بن الصامت - وكان بدرياً تقياً - كان له حلف مع اليهود فلما خرج النبى - ﷺ - يوم الأحزاب قال له عبادة : يا نبى الله إن معى خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾(3) .

وصار لزاماً على المسلمين - أيضاً - ألا يوالوا الأعداء مهما بذلوا من نصح

(1) سورة التوبة (71) . (2) سورة النساء (76) .
(3) سورة آل عمران (28) .

وإرشاد ومحبة وتواد وصداقة وتعاون ، قيل لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : إن ها هنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب فهل اتخذته كاتباً فقال : « لقد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين » يشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾[1] .

وضع القرآن قضية الولاء لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين صريحة واضحة بينة أمام أنظار المسلمين منذ أن وطئت أقدامهم أرض المدينة وصاروا جماعة لها كيان خاص وقانون خاص ونزلت الآيات بشأنها تنادى وتنهى وتحذر من هذا الثالوث الرهيب : **الكفار وأهل الكتاب والمنافقين** : هذا الثالوث الذى سيقف أمامهم فى كل زمان ومكان ويعمل على عرقلة مسيرتهم بالدخول فى صفوفهم بغية الإيقاع بينهم وتفريق كلمتهم كما يسعى جاهداً لزحزحتهم عن رسالتهم ويتآمر على إنهاء جماعتهم وكسر شوكتهم . . وأخيراً !! يتمنى الهلاك لهم ، كشف القرآن النقاب عن نفسية أهل الكتاب ونياتهم وحقدهم وحسدهم للمسلمين قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[2] وقال جلا وعلا : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[3] بل إنهم ليفعلون أكثر من هذا فقد وصل العداء فى نفوسهم إلى حمل السلاح ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾[4] وإنهم ليسلكون كل طريق ويطلبون كل وسيلة من أجل هذه الغاية السيئة ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[5] وقال تعالى ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[6] .

---

(1) سورة آل عمران (118) .
(2) سورة البقرة (120) .
(3) سورة البقرة (109) .
(4) سورة البقرة (217) .
(5) سورة آل عمران (72) .
(6) سورة آل عمران (69) .

الأول من الثالوث

ومن أجل ذلك كانت هذه النداءات للجماعة المؤمنة حتى تكون على حذر منهم فلا موالاه ولامصاحبة حفظاً لأسرار الأمة .

1- قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات : أن « شاس بن قيس اليهودى » مر على جماعة من الأوس والخزرج فغاظه أن يجدهم متألفين ألف بينهم الإسلام بعد فرقة وجمعهم بعد إحَن - جمع إحْنة - وعداوة فدس بينهم من ذكرهم بالماضى الأسود الكئيب أيام الحروب والعداوة وأنشد ما كان من أشعار المعارك بينهم فحرك وجدانهم وهيج أشجانهم حتى تنادوا فيما بينهم « السلاح . . السلاح » ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى تداركتهم فخرج الرسول - ﷺ - مسرعاً إليهم فهدأ نفوسهم قائلاً : « **أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام** » .

أرأيت ما فعله شاس اليهودى ؟ قل لى بربك !! هل ترى فرقاً بين ما فعله هذا اليهودى قديماً وبين ما يفعله أمثاله من دسائس ومكر وانقلابات واصطناع أهل النفاق والعملاء فى العصور الحديثة على مستوى العالم الإسلامى .

2- وهذا نهى عن موالاة أهل الكتاب تحمله مجموعة أخرى من الآيات الكريمة قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾[2] .

هكذا . . بالنهى الصريح ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ لأنهم أولياء بعض يتجمعون على الكيد والتآمر والدس والوقيعة بين المسلمين وسواء نزلت هذه الآية فى شأن « أبى لبابة بن عبدالمنذر الأنصارى » حين أرسله الرسول - ﷺ - إلى يهود بنى قريظة أن

(1) سورة آل عمران (101) . (2) سورة المائدة (51) .

ينزلوا على حكم الرسول فسألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار إلى حلقه - يريد أنه الذبح - أو نزلت بعد غزوة أحد فى شأن بعض المسلمين حين خافوا الأعداء فأرادوا أن يوالوا اليهود والنصارى من أجل القوة والمنعة ، أو نزلت فى شأن عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبى بن سلول وكانت هناك صداقات وموالاة بينهما وبين اليهود فتبرأ عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - من موالاتهم وتمسك بها ابن أبىّ قائلاً : إنى أخاف أن تدور الدوائر . . مهما قيل فى سبب نزولها فإن عداوة هؤلاء الأعداء قائمة حتى صارت طبعاً مرذولاً فيهم فلا يمكن أن يتخلصوا منه وقد أثبتت الحوادث على مر القرون أنهم باقون على هذا العداء .

3- وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾(1) هكذا - أيضاً - بالنهى الصريح فمازال أهل الكتاب يظهرون خبث طويتهم ومكنون غيظهم فديننا هدف لسخريتهم ووجودنا غرضاً لكيدهم وتآمرهم فلم يدخلوا فيه - وهم أعرف الناس به وبرسوله الذى جاء به ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(2) - ولم يتركوا غيرهم ينعم بالحياة فى ظله ، وباستعراض ما رواه المفسرون فى سبب النزول سوف تتضح العداوة سافرة ، روى القرطبى قال الكلبى : كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود : قد قاموا . . لا قاموا ، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا وقالوا فى حق الأذان : لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم فمن أين لك صياح مثل صياح العير ؟ فما أقبحه من صوت وما أسمجه من أمر ، فأنزل الله هذا الآية ، وذكر أبو السعود : روى أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله يقول : أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطايرت منه شرارة فى البيت فأحرقته وأهله جميعاً » .

إن الله عز وجل عليم بنيات القوم مطلع على سرائرهم فنهى عباده المؤمنين أن

---

(1) سورة المائدة (57) . (2) سورة البقرة (146) .

يتخذوا منهم أصدقاء ونصراء أو مستشارين وخبراء يأخذون برأيهم وينزلون على مشورتهم ، روى القرطبى عن جابر أن النبى - ﷺ - لما أراد الخروج إلى أحد جاءه قوم من اليهود فقالوا : نسير معك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « **إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين** » .

الركن الثانى من الثالوث

وبعد هذه الجولة التى سرنا فيها مع الآيات كى نتعرف على الركن الأول من الثالوث الرهيب الذى يضع الحواجز والسدود أمام ديننا وهم « أهل الكتاب » نشرع فى التعرف على الركن الثانى من الثالوث الرهيب وهم طائفة الكفار والملاحدة والمشركين ومن سار سيرتهم من الشيوعيين وأصحاب النحل الباطلة والمستعمرين وسنعيش أيضاً - مع الآيات الكريمة وسنرى أن الله نهى عن موالاتهم وعدم الركون إليهم :-

أ- قال الله تعالى **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾**(1) رتبت الآيتان الكريمتان أمرين على أمرين : فإن طاعة الكافرين نتيجتها ارتداد إلى عهد الجاهلية الأولى وفى ذلك الخسران المبين وخير من هذا وأكرم أن يرضى المسلم بولاية الله له وهو نعم المولى ونعم النصير .

وبالوقوف أمام بقية الآيات ومعرفة أسباب نزولها سوف يتضح أن الكافرين أعداء ألداء لم تهدأ نار عداوتهم فوجب الحذر منهم والبعد عنهم وعدم الميل إليهم **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾** (2) .

ب- قال الله تعالى **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ**

(1) سورة آل عمران (149 ، 150) . (2) سورة هود (113) .

خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ② لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] إلى آخر السورة .

هذه هي سورة الممتحنة بآياتها القليلة العدد الكثيرة المعاني والتوجيهات حتى إنها لتعتبر - بحق - دستور العلاقة بين المسلمين وغيرهم وأصلاً كبيراً فى نهيهم عن موالاة الكافرين وسوف يتبين ذلك عند استعراض آياتها بعد بيان سبب نزولها .

روى الأئمة واللفظ لمسلم عن عليّ - رضي الله عنه - قال : بعثنا رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد فقال : « **ائتوا روضة خاخ فإن فيها ظعينة معها كتاب فخذوه منها** » فانطلقنا تعادى - تجرى - بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه من « حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله - ﷺ - ، فقال رسول الله - ﷺ - : « **يا حاطب !! ما هذا ؟** » قال : لا تعجل علىَّ يا رسول الله !! إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش ، قال سفيان - كان حليفاً لهم ولم يكن من أنفسها - وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبى - ﷺ - « **صدق** » - فقال عمر - رضي الله عنه - : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق !! فقال : « **إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » فأنزل الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ هذا ما قيل فى سبب نزولها وهو صريح فى عدم موالاة الكافرين وظاهر فى أن يكون ولاء المسلم لله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾[2] .

---

(1) سورة الممتحنة (1 ، 3) .
(2) سورة النساء (45) .

والآن !! نأخذ فى توضيح آيات هذا الدستور العظيم كى نضعه أمام أنظار المسلمين حتى يكونوا على بينة من أمرهم ويعرفوا العدو من الصديق ويدركوا أن الولاء لله فى سبيلا العزة والنجاة وسبب الكرامة والسعادة . .

الآية الأولى : نهى الله الجماعة المؤمنة أن توالى الأعداء بأى نوع من أنواع الموالاة على حساب الرسالة لأنهم كفروا بالله والرسول وجحدوا الرسالة التى جاء بها وأنكروها وقد أخرجوكم من دياركم لا لشىء إلا لأنكم آمنتم بالله ورسوله واتبعتم هذه الرسالة والله أعلم بما فى ضمائركم محيط بأسراركم فلا صداقة ولا محبة . . لا تفعلوا ذلك أبداً .

الثانية : هؤلاء الأعداء إذا صادفوكم وظفروا بكم بسطوا إليكم أيديهم بالضرب والإهانة وألسنتهم بالسب والشتم وهم بعد ذلك كله يتمنون ارتدادكم عن هذا الدين ورجوعكم على أعقابكم خاسرين .

الثالثة : هؤلاء الأولاد والأقارب والأرحام الذين أطلعتم الأعداء على سر رسول الله من أجلهم لن ينفعوكم بشىء يوم الفصل والقضاء يوم يفصل ربنا عز وجل بين عباده .

الرابعة : خذوا هذه الخصلة الحميدة - موالاة الله - من خصال إبراهيم - عليه السلام - واقتدوا به فيها حين تبرأ من أهله حين كفروا بالله وظل على خصامه لهم فلتكونوا مثله فى الموالاة لله والمعاداة لأعدائه ومناجاة ربه وتوكله عليه والإنابة إليه .

الخامسة : وهذا دعاء يجب أن تتحصن به الجماعة المؤمنة فى مواجهة الأعداء وما يثيرونه من فتن وقلاقل فما أعظم المناجاة وما أحسن الذكر وأكرم به من زاد على الطريق ينتفع به المؤمن .

السادسة : وهذه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة فى إبراهيم ومن معه إنما تكون لمن يطمع فى ثواب الله ورضاه فى الآخرة والخير والسعادة فى الدنيا ومن تولى عن ذلك وأعرض عن طريق الهداية فإن الله هو الغنى الحميد .

السابعة : والله سبحانه وتعالى على كل شئ قدير فكما ألف القلوب المتنافرة على رسول الله فإنه قادر على أن يقلب قلوب من أراد من هؤلاء الأعداء نحو الخير فيجعل فيها مودة بعد قطيعة ومحبة بعد عداء فقد أسلم منهم قوم بعد فتح مكة وصار منهم زادة عن الدين فى حروب الفرس والروم وصهرهم الإسلام فى بوتقة مع من سبقوهم إليه وأبلوا البلاء الحسن فى حروب الردة وفعلوا غير ذلك من الأفعال العظيمة التى تقربهم إلى الله عز وجل .

الثامنة : ولما كانت الموالاة والمعاداة من أجل الدين ورسالته فإن الله أمر عباده المؤمنين أن يكونوا أهل خير وبر ووفاء وأمانة ومراعاة لحقوق الجار وصلة الأرحام مع كل من أحسن إليهم وعاش معهم على عهود ومواثيق وترك المعاداة والقتال وعاش معنا فى أمان فلا بأس أن نعطيه مثل ذلك فنحن دعاة عدل وأمان .

التاسعة : أما هؤلاء المقاتلون المعاندون رؤوس الشرك وجبابرة الطغيان الذين وقفوا بكل طريق يصدون الناس عن الدخول فى هذا الدين وأخرجوا المسلمين من ديارهم وتآمروا على قتل نبيهم وعملوا على وأد الدعوة - وما زالوا يفعلون - فمحال أن يكون لهم عهد ووفاء ومودة وولاء ومن خالف ذلك واتخذ منهم أصدقاء ونصراء فقد ظلم نفسه .

العاشرة : وحفاظاً على المرأة - وهى الجنس الضعيف - من الفتنة أن تتعرض لها من المشركين كان لابد من حسم أمرها فمن جاءت منهم فارة بدينها مهاجرة إلى رسولها فلا ترد إلى قومها المشركين وليكن بدلاً منها إعطاء زوجها مهرها الذى أعطاه لها لأنها - والحالة هذه - لا تحل له لكفره وخير لها منه مسلم يحفظها فى دينها وعرضها يتزوجها وتعيش فى كنفه وقد آن الأوان لتسريح المشركات والكافرات وتطليقهن لأنهن لم يعد لهن مكان فى بيت مسلم ولا عصمة لهن عندنا وذلك هو حكم الله الذى حكم به بين عباده .

إحدى عشر : وهذا حكم آخر أمر الله به تعويضاً للمسلم حين تفر زوجته مرتدة إلى أمثالها المشركات والكافرات : أن يعطى له مقدار ما دفعه لها من مهر وقد فعل ذلك النبى ﷺ فصار حقاً معلوماً .

اثنتا عشرة : نداء لرسول الله ولمن قام بالأمر من بعده أن يتعهد المؤمنات وقد جئن يبايعن فيبين لهن ما يجب عليهن من آداب عالية وأخلاق كريمة وتنزه عن الخنا حراسة للفضائل فى المجتمع وإشاعة لجوانب الخير فيه وإبعاداً للرذائل عنه وحرصاً على ولائهن للعقيدة والرسالة ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثلاث عشرة : عادت السورة تؤكد فى ختامها ما طرحته فى أولها من عدم موالاة الكافرين لأن الله قد غضب عليهم فوجب اجتنابهم والبعد عنهم وبذلك يصبح مجتمعنا نظيفاً من عوامل التدمير والهدم . .

أرأيت إلى السورة ؟؟ كيف عالجت هذا الموضوع الخطير من أولها إلى نهايتها تخرج من جزئية كى تشرح جزئية أخرى وفى كل تضع النقط فوق الحروف .

ج- وهذه آية أخرى تبين ما فعله جماعة من المؤمنين : لم يعترفوا بقرابتهم لأنهم حاربوا الله وعصوا رسول الله فنبذوا هذه القرابة لأن القرابة الحقيقية هى قرابة الإيمان وليست قرابة الأبدان قال الله تعالى ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] روى غير واحد من المفسرين عند تفسيرها ، نزلت ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ فى أبى عبيدة قتل أباه الجراح فى يوم بدر ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فى الصديق هَمَّ بقتل ابنه عبدالرحمن بن أبى بكر ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ فى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر ، قال الإمام الفخر : إنه لا يجتمع الإيمان مع حب أعداء الله وذلك لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب عدوه لأنهما لا يجتمعان فى القلب فإذا حصل فى القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان فظهر من هذا أن الآية الكريمة تنهى عن محبة ومصادقة الكفرة المجرمين .

(1) سورة المجادلة (22) .

د- وقال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1] نداء من الله بأحب الأوصاف بلفظ الإيمان للجماعة المؤمنة تكريماً لهم وحفزاً لهم أن يسارعوا إلى امتثال ما أمر الله به قال ابن مسعود : « إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنه خير تؤمن به أو شر تنهى عنه » وواضح من كلام العلماء عن هذه الآية أن النداء فيها موجه لجميع المؤمنين كافة وحكمها بالله إلى يوم القيامة وصريح فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين وجاء فى « أسباب النزول » عن الكلبى قال : لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته لقد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون : نشدناك الله ألا تدعنا من غير شئ فنضيع فيرق ويجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم وواضح من الآية الثانية أن الله تعالى أمر رسوله الكريم أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على حب الله ورسوله وبذل النفس والمال فى الجهاد فى سبيله وقد جاءت السنة مبينة لهذا المعنى وشارحة له روى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه** » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلىّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : « **الآن يا عمر** » وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « **والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين** » وروى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** » .

---
(1) سورة التوبة (23) .

الركن الثالث من الثالوث

وإلى هنا نصل بالحديث عن الركن الثالث من أركان الثالوث الرهيب والمدمر هذا العبء الثقيل الذى ارتفع على أكتاف الأمة والكابوس الذى جثم على صدرها وأصابها من شر مستطير وعمل على بث الإشاعات والأراجيف والتشكيك فى كل زمان ومكان حول ما من شأنه أن يعود على الأمة بالرفاهية والتقدم ويرقى بها فى حاضرها ومستقبلها وهؤلاء هم طائفة « **المنافقين والعملاء والخونة والمسلطين** » .

والحديث عن النفاق والمنافقين طويل نزل فى سور عديدة من القرآن فى سورة (البقرة) وحدها ثلاثة عشرة آية ، وتجد فى سورة (آل عمران) و(النساء) و(التوبة) و(الأحزاب) و(محمد) و(الحشر) وسورة سميت باسمهم هى سورة « المنافقين » فالكلام عنهم طويل فى هذه السور بين صفاتهم القبيحة وأخلاقهم المرذولة وأعمالهم الممقوتة وغير ذلك مما جعل منهم طائفة منبوذة مفضوحة على صفحات الكتاب العزيز وخصوصاً فى سورة « التوبة » ومنهم كذا . . ومنهم كذا وذلك جزاء ما ارتكبوا من أعمال سيئة مما كان سبباً أن يملأ الحديث عنهم مكاناً كبيراً فى القرآن أن من أبرزه أنهم جماعة جمع بينهم الشر والتشكيك والحقد والحسد والبغضاء للمسلمين وكشف أسرارهم للأعداء ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾(1) .

أرأيت إلى التعبير الجميل ﴿ **بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ أنهم شيء واحد صنف واحد مذهب واحد لا تجد فرقًا بين واحد والآخر إنهم فى الكفر والنفاق والبعد عن الإيمان سواء مهما حلفوا وقالوا إنهم مؤمنون ﴿ **يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** ﴾

(1) سورة التوبة (67) .

عكس المؤمنين ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أشحاء بخلاء لا ينفقون شيئاً في سبيل الإيمان الذى يتحدثون عنه ويدعون إنهم مستمسكون به ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وكان لابد من نسيانهم وعقابهم وطردهم من رحمة الله .

ويعنينا من الحديث عن المنافقين هذا الجانب المتصل بموضوعنا وهو (الولاء) وقد نهى المسلمين عن موالاتهم ومودتهم لأنهم خونة يبيتون الشرور والخيانة لهم ويطلعون أعدائهم على أسرارهم قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1] .

وضح من عرض الآيات الكريمة أن قلوب القوم انعقدت على مجموعة من الشرور والآثام والخصال الذميمة : إنهم لا يتورعون عن ارتكاب أى نوع من أنواع الفساد ويتمنون المشقة والأذى وطفحت أفواههم بالكراهية والبغضاء وما فى صدورهم من الأضغان أكثر مما أظهروه لا يحبون المسلمين رغم المسالمة والموادعة يبدون عند اللقاء مودة وبشاشة وفى خلواتهم يطلقون ألسنتهم بالسب والبذاء يسوءهم ما ينزل بكم من نصر ورخاء وخصب ونماء وتآلف وإخاء ويفرحون إذا نزل بكم شدة أو عناء أو جدب أو شقاء لعنهم الله فى كل زمن أو مكان ودمر عليهم كما دمر على المفسدين من أمثالهم فى كل أمة وجماعة وخذلهم شر خذلان وأبعدهم عن طريق الإيمان والمؤمنين .

فليأخذ المسلمون من هذه الآية وغيرها عبرة ودرساً فمن أجل ذلك كان النهى المتقدم لجماعة المؤمنين أن تكون على حذر منهم خاصة فى العصر الحديث .

---

(1) سورة آل عمران (118) .

هذه هى قضية الولاء أضعها أمام أنظار المسلمين فى كل مكان حتى يحددوا موقفهم ويعرفوا غايتهم ثم يسلكون الطريق إليها على بينة وبصيرة ويلموا شملهم ويرأبوا صدعهم ويجمعوا ما تفرق من جماعاتهم وبدون ذلك لن يكون لهم وجود ولن يتحقق لهم ولاء .

وخير ما نختم به هذه الجولة فى آفاق هذا الدين : عن أهدافه ومراميه : عن دعوته ورسالته : عن آثاره ومعجزاته التى حولت مجرى التاريخ وغيرت العادات البالية ومحت التقاليد الوثنية والأفعال القبيحة من السطو والغارات والحروب الطويلة لأتفه الأسباب والسكر والربا والزنا وغير ذلك من العادات الضارة التى جعلت من عرب الجزيرة قبائل متناحرة يكيد بعضها لبعض ويتمنى بعضها الهلاك للبعض الآخر ، وخير ما نختم به هذه الجولة فى آفاق هذا الدين عن أهدافه ومراميه ، عن معجزاته التى حولت مجرى التاريخ العام وغيرت العادات والتقاليد حديث نبوى شريف رواه الإمام أحمد بن حنبل عن عمرو بن عبسة قال : قال رجل يا رسول الله : ما الإسلام ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « **أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك** » .



الفصل الثاني

وصية العدل والإنصاف

- هذه الوصية الرحيمة نظام أمثل وعدل مطلق .
- نظام التوريث فى الجاهلية .
- وضع المرأة فى الجاهلية والإسلام .
- وجاء الإسلام ...! .

قال الله تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

***

هذه الوصية الرحيمة

بادئ ذى بدء : وبين يدى الكلام عن هذه الوصية الغالية التى جاءت على قدر فتنزلت من عند الله أحكم الحاكمين ورب العالمين : ينبغى أن يكون معلوماً إننا لن ندخل فى تفصيل أحكام الميراث فنبين من يرث ومن لا يرث والحجب والحرمان والجد الصحيح وأحواله وأحوال الجدات وأحوال الأخ وأقسام العصبة والرد وغير

(1) سورة النساء (11 - 12) و (176) .

ذلك مما حفلت به كتب الفقه : لأن هذا الكلام لم نقصد إليه ولن ندخل فى تفصيل قد تكفلت كتب الفقه ببيانه أكمل بيان حتى خص دون غيره بالتأليف على حدة وصار يسمى « علم الميراث » وتوفر له من الكتب والبحوث ما جعله علماً قائماً بذاته وهذا من فضل الله على هذه الأمة أن فقه علماءها فأنتجوا هذا الإنتاج الغزير ووفروا هذا التراث الخصب الضخم ، لم نقصد إلى شىء من ذلك لأننا نريد أن ننحو بالوصية نحواً آخر ونتجه بها وجهة أخرى مع مثيلات لها ضمها هذا الكتاب حسب خطة رسمها لنفسه ولن يحيد عنها ، وإنما هدفنا أن نعيش مع وصية كانت من أجل رحمة ورأفة وعدل وإنصاف رحمة ورأفة بالأيتام والصغار وعدل وإنصاف للمرأة وهى نصف المجتمع كانت الوصية من أجل إصلاح خلل ظل فى المجتمع البشرى أحقاباً طويلة ومن أجل ذلك أحببت أن نعيش معها فى جو روحى نتعرف من خلاله عليها : لماذا جاءت وأنزلت ؟ ولماذا كانت وصية ضمن مجموعة من الفضائل حملت هذا اللفظ الطيب الحنون « يوصيكم » الذى دل على رحمة حانية ورأفة من الله بعباده الضعفاء ؟ وكما قيل : « وبضدها تتميز الأشياء » .

كانت الوصية من أجل الصغار والأيتام والنساء وقد حرموا من ميراث الآباء حرمهم أهلوهم ولم يجدوا منصفاً ينصفهم من هذا الجور ويرد لهم حقوقهم المهضومة ولم يجد هذا الوضع الشاذ من قوانين المجتمع ولا من أعرافه ولا من المفكرين من يصلحه أو ينادى بإصلاحه حتى وصل الأمر إلى عصر الجاهلية العربية وقد صار عرفاً مألوفاًوقانوناً موروثاً ووضعاً شكل جملة من الأسس يقوم عليها نظام هذا المجتمع الجاهلى .

ولما كان مجيء الإسلام من أجل أن يطب لهذه البشرية من أسقامها وآلامها ويصلح من خللها ويلم من شملها ويرأب صدعها ويجمعها على عدالة ومساواة فإنه نظر إلى وضع هؤلاء الضعفاء نظرة عطف ورحمة فجعل لهم نصيبهم من الميراث من منطلق مبدأ التكافل والتعاون وتحمل المغارم والحصول على المغانم بين أفراد الأسرة الواحدة حرصاً على هذه الوحدة وبتراً لأسباب الشحناء والبغضاء

ومنعاً للجور والظلم وكان ذلك أول صيحة من صيحات الإصلاح فى عصور الظلم والجبروت والاستبداد وهضم الحقوق ، وفى وصية حانية شفيقة رفيقة تذيب صخر النفوس وتجلو رين القلوب فوضع بذلك الحق فى موضعه وأنصف المظلوم من ظالمه فكانت معجزة إسلامية إصلاحية أعادت إلى نصف المجتمع حقه المغصوب معجزة لم يستطع أحد ممن حملوا راية الفكر فى الأمم أن يفكروا فيها أو أن يبحث عن حل لها فجاء الإسلام ليعلنها صريحة مدوية كي تكون حكماً من أحكامه باقياً على الدهر ما بقيت الحياة قال تعالى ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾[1] فأبطل الله بذلك حكم الجاهلية من عدم توريث النساء والأطفال وإبقاء المال كله للرجال الكبار وصار الجميع أمام حكم الله سواء يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتت فروضهم حسب درجة قرابة كل واحد منهم من الميت ، أورد كثير من المفسرين حول هذه الآية أنها نزلت فى (أوس بن ثابت الأنصارى) توفى وترك امرأة يقال لها : (أم كُجة) وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما (سُوَيْد) و(عَرفَجة) فأخذوا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً ويقولون : لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وطاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز الغنيمة فذكرت (أم كُجة) ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما فقالا : يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا يتكأعدوا فقال عليه الصلاة والسلام : « **انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن** » فأنزل هذه الآية رداً عليهم وإبطالاً لقولهم فإن الورثة الصغار كان ينبغى أن يكونوا أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم والنظر فى مصالحهم فعكسوا الحكم وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم وأخطئوا فى آرائهم وتصرفاتهم . . .

قال علماؤنا : فى هذه الآية فوائد ثلاثة : إحداهما : بيان علة الميراث ، الثانية : عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو من بعيد ، الثالثة : إجمال

---

(1) سورة النساء (7) .

المفروض ، وذلك مبين فى آية المواريث فكان فى هذه الآية توطئة للحكم وإبطال لذلك الرأى الفاسد حتى وقع البيان الشافى . . .

نظام أمثل وعدل مطلق

ولقد كان نظام الميراث فى شريعة الإسلام أعدل ما عرف الناس فى القديم من قوانين ونظم حقق ما تصبوا إليه النفوس من عدالة وإنصاف فكان نظاماً يتفق مع الفطرة الإنسانية التى خلق الله الناس عليها من حب العدل ومنع الظلم وإتاحة كل فرص السعادة والطمأنينة ، كما أنه يتفق - أيضاً - مع دواعى الحياة الإنسانية والأسرية والعائلية وظروفها ومقتضياتها وهو نظام يتضاءل أمامه أى نظام عرفه الناس قديماً وحديثاً فى أى مكان من الأرض .

كان نظاماً فريداً لأنه يحقق معنى التكافل بين أفراد العائلة الواحدة ويعطى كل واحد من أفرادها على قدر مكانته فى الأسرة فجعل عصبة الميت أولى بالميراث من غيرهم بعد أصحاب الفروض كالوالدة والوالد لأنهم أقرب إليه من غيرهم ويتحملون عنه ما عساه أن يقع عليه من مغارم وديات .

وكان نظاماً فريداً لأنه لم يحرم امرأة ولا صغير لمجرد أنه صغير أو لمجرد أنه امرأة لأنه نظر إلى الأسرة نظرة أخرى غير النظرة الجاهلية فهى أسرة واحدة عمادها التراحم والتواد والتكافل والتضامن والتعاون على كل ما من شأنه أن يحفظ عليها الثبوت والاستقرار .

وكان نظاماً فريداً حين قدم - فى الإرث - أبناء الميت على غيرهم من الأصول والقرابة فأعطاهم من الميراث أكثر من الأصول لأنهم الجيل الجديد بعد حياة الميت الذى سيمتد به النوع الإنسانى فهم - من أجل ذلك - أحوج من غيرهم فى حين إنه لم يحرم الأصول والأقارب الآخرين بل جعل لكل منهم نصيباً .

وكان نظاماً فريداً لأنه يتمشى مع فطرة الإنسان ورغبته فى دوام سعيه ومتابعة عمله ونشاطه وطمأنينة نفسه على توريث متاعه وكده لفلذة كبده من بعده

ومن أولى بهذا منه ؟؟ .

وأخيراً !!! وبدون قانون أرضى من قوانين البشر وبدون تدخل من شرطة أو سلطة كائنة من كانت .

كان نظاماً فريداً لأنه يعمل على تفتيت الملكية وتوزيع الثروة من آن لآخر ونقلها من شخص لآخر حتى لا تبقى فى يد واحدة . .

وهكذا . . شرعه الله العليم الخبير جل علاه بكسوره الرياضية الدقيقة ليكون أعدل نظام للتوريث عرفه الناس إلى قيام الساعة ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** ﴾ .

نظام التوريث فى الجاهلية

ولقد كان نظام التوريث فى عصر الجاهلية يعتمد على أمرين : **الأول** : النسب ، **والثانى** : السبب ، وعن الأمر الأول : فالمعروف أنهم لم يكونوا يورثون الصغار والإناث وإنما يورثون من يحملون السلاح ويقاتلون الأعداء ويغيرون على القبائل المجاورة وهذا هو المروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، وأما عن الأمر الثانى : فقد كانوا يتوارثون بمقتضى الحلف والمعاقدة كما كانوا يورثون المتبنَّى من تركة الذى تبناه .

ومعنى الحلف والمعاقدة : أن الرجل فى الجاهلية كان يعاقد الرجل فيقول : « دمى دمك وهدمى هدمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك وترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك » فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ثم نسخ بنزول قوله تعالى : ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[1] كان ذلك شائعاً فى الجاهلية وصدراً من الإسلام إلى أن نزلت آيات المواريث فأبطلت ما كان عليه هذا الوضع الشائن من عدم توريث الأطفال والنساء وألغت الميراث بالمعاقدة والحلف وفصلت أنصباء الوارثين من

(1) سورة الأنفال (75) .

الرجال والوارثات من النساء كما ألغت نظام التبنى لا فى الميراث وحده بل فى الأحوال كلها بعد نزول قوله تعالى ﴿ . . . وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ④ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] نزلت فى « زيد بن حارثة » قال ابن عمر رضى الله عنهما : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد » فكان التبنى معمولاً به فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام يتوارث به ويتناصر إلى أن نسخته هذه الآية فرفع الله حكم التبنى ومنع من إطلاق اسم المتبنِّى على المتبنَّى فصار الأعدل والأصوب والأولى أن ينسب إلى أبيه ، وهذا من غير شك هو الوضع الطبيعى الذى خلق الله الناس عليه .

كان أمرا طيباً حسناً وكانت حكمة رائعة ووضعاً للحق فى نصابه أن يلغى هذا العرف الشاذ الذى شاع فى الناس قديماً من اتخاذ أبناء يخلعون عليهم كل صفات الأسرة ومقوماتها وعاداتها وتقاليدها وهو غريب لا يحمل خصائصها وأصولها أقول : كان حسناً أن يلغى هذا النظام لما كان فيه من تزييف وتزوير على الحقيقة والواقع وإدخال هذا النسل الغريب فى مجموعة أخرى أجنبية عنه فيها الزوجة والبنت والأخت للمتبنِّى فيدخل عليهن وهو أجنبى عنهن ويعيش معهن على أنه فرد منهن ويعاشرهن كأنه واحد من أسرتهن بل ويزاحمهن فى الميراث فيأخذ قدر اثنين منهن وبذلك يعطى نصيباً ليس له ولا يستحق منه شيئاً ومن هنا تضيع حقوق الورثة الحقيقيين ، الأمر الذى يغرس العداوة والبغضاء بينهم وبين هذا الدَّعى .

من أجل ذلك كان - والله أعلم - إبطال هذا النظام حرصاً على البنوة الحقيقية وحفظا للنسل الأصيل وامتداداً لعواطف الأبوة الجياشة نحو الذرية التى تحمل اسمه لأنها من صلبه وتكثير الدواعى والنشاط والسعى والحركة والضرب فى جنبات الأرض من أجل ذرية تعيش على كد أبيها الراحل ، لذلك قال بعض العلماء : لو

(1) سورة الأحزاب (5) .

فتح باب الانتفاء من الأب لأهملت هذه المصالح ولاختلطت الأنساب ولضاعت حكمة الله فى جعل الناس شعوباً وقبائل » .

هكذا كان الوضع فى الجاهلية يورثون الحليف ويعطون المتبنَّى ويحرمون البنات والصبية بحجة أنهم لا يحملون السلاح ولا يدافعون عن القبيلة ولا يحوزون الغنيمة ، لا يركبون فرساً ولا يردون مغيراً وقد وردت هذه العبارة عنهم « لا يرث إلا طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة » لذلك حرموا البنات والصغار وأعطوا الميراث للكبار .

وأخيراً !! وقبل أن نبرح هذا المكان يحسن أن نبين وضعاً آخر قبيحاً كان موجهاً إلى ذلك الزمن لا يقل شناعة عما سبق من مظالم رهيبة وهو أمر « الأيتام » فكان الناس يأكلون حقوقهم - وبخاصة البنات اليتيمات - فى بيوت الأولياء الأوصياء فلا يحافظ على أموالهم وإنما يتصرف بها الولى أو الوصى بالطمع والإسراف ويستبدل منها الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتيم حتى إذا ما كبر سنه وبلغ رشده لا يجد شيئاً إلا ما تبقى منها خبيثاً رديئاً بعد طمع الطامعين كما كانوا يحبسون البنات اليتيمات من ذوات الأموال ليكن زوجات لأولاد أوصيائهن وأولياء أمورهن طمعاً فى مالهن ، قال البخارى عن عائشة : إن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق وكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾[1] أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العذق وفى ماله ثم قال البخارى : عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ قالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق وأمروا أن

(1) سورة النساء (3) .

ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن قال عروة : قالت عائشة « وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ قالت عائشة : وقول الله تعالى فى الآية الأخرى ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال »[1] .

وضع المرأة فى الجاهلية والإسلام

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى قمة الظلم الاجتماعى الذى وصل الناس إليه فى العصور الوسطى وما قبلها وهو هذا الوضع الشاذ الذى وصلوا بالمرأة إليه وهى نصف المجتمع وبذلك عاشت الحياة الاجتماعية برئة واحدة إذ تعطلت وظيفة المرأة وهى محضن الجيل ومربيته فضربوا عليها ستاراً كثيباً من التخلف أشبه بالكهف المظلم ، كان هذا فى أمم الحضارات القديمة والأمم البدائية وأهل الأديان الكتابية قبل الإسلام .

ففى الحضارة اليونانية القديمة : كانت المرأة تحرم من التعليم والثقافة وتجرد من حقوقها المدنية وتوضع تحت السيطرة المطلقة للرجل قال (أرسطو) : ثلاثة ليس لهم حق التصرف فى أنفسهم : العبد ليس له إرادة ، الطفل له إرادة ناقصة المرأة ، لها إرادة وهى عاجزة »[2] ويقول (ديموستن) : إننا نتخذ العاهرات للذة ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ونتخذ الزوجات ليلدن الأبناء الشرعيين »[3] .

والقانون الرومانى جرد المرأة من معظم الحقوق المدنية ووضعها تحت السيطرة المطلقة لرئيس الأسرة وبمقتضى هذه السيطرة كانت تباع بيع الرقيق فى بعض الأحيان فضلاً عن أنها لم يكن لها حق المطالبة بميراثها من زوجها إذا مات عنها كما كان للزوج أن يحرمها من إرثه إذا شاء »[4] .

وفى بلاد الفرس كانت المرأة لا قيمة لها تباع فى الأسواق كما تباع السلع وقد

---

(1) ابن كثير .
(2) قصة الحضارة .
(3) فجر الإسلام .
(4) المرأة من خلال الآيات القرآنية .

ازداد الأمر سوءاً حين قام دعاة المزدكية ينادون بشيوعية الأموال والنساء فانتشرت الإباحية فى هذا المجتمع وتحملت المرأة نصيباً كبيراً من هذا العناء والإهانة .

وفى الديانة البرهمية الهندية وضعت المرأة تحت تصرف الرجل ومنفذة لأوامره وليس لها الحق فى أى تصرف قانونى فانحطت بذلك مكانة المرأة - كما يقول بعض الباحثين - إلى درجة أن الرجل كان يخسر امرأته على مائدة القمار وكان للمرأة فى بعض الأحيان أكثر من زوج وإذا مات زوجها أحرقت نفسها تخلصاً من شقاء الدنيا وتفادياً من عذاب الحياة بعده .

وإذا انتقلنا من أمم الحضارة إلى أهل الأديان السابقة لم نجد المرأة أسعد حالاً مما كانت عليه من قبل : هؤلاء اليهود جعلوها فى منزلة أشبه بمنزلة الرقيق إذ جردوها من كل حقوقها المدنية وجعلوها تحت تصرف أبيها قبل الزواج وتحت تصرف زوجها بعده .

ولم تكن المرأة مع المسيحيين بأحسن حالاً منها مع اليهود وسيظهر من كلام علمائهم كيف كانوا يفكرون فى شأن المرأة ، قال (كريستوم) « المرأة شر لابد منه وإغواء طبيعى وكارثة لازمة وخطر منزلى وفتنة مهلكة وشر عليه طلاء »[1] بل وصلت بهم الجرأة إلى أن جردوها من العفة قال الأب (توماتوركوس) : لقد بحثت عن العفة بينهن ولكن لم أعثر على أى عفة ، يمكن أن تعثر على رجل من بين الألف رجل ذى عفة وحياء ولكن لن نتمكن أن نعثر على امرأة واحدة لها عفاف وخجل »[2] .

كانت هذه هى نظرة الناس إلى المرأة فى الزمن القديم واستمرت حتى ظهر نور الإسلام فكان بداية خير عميم للإنسانية كلها فوجدت فيه المرأة شخصيتها ومكانتها وحريتها وكرامتها وحقها المغصوب وعفافها المنهوب ، نظر إليها الإسلام نظرة عطف ورعاية وإنصاف ، بينما كان هذا الصنيع نوراً يتلألأ فى ربوع الشرق الإسلامى كان الناس يختلفون فى مناطق أخرى من العالم حول طبيعة المرأة : هل هى إنسان أو غير إنسان ؟ ومن عجب أن بعض الحاضرين فى مؤتمر عقد فى أوربا

(1) قصة الحضارة .
(2) المرأة فى التصور الإسلامى .

من أجل هذا الغرض قال : إنها ليست بإنسان وإنما هى شيطان ، وهذه عبارة وردت على لسان بعض القساوسة « بأن المرأة لا تتعلق ولا ترتبط بالنوع البشرى »[1] .

وقبل أن نشرح ما قرره الإسلام لها من حقوق وواجبات يحسن أن نلقى نظرة عجلى على وضعها فى الجاهلية : والواقع أن وضع المرأة فى العصر الجاهلى كان يتأرجح بين الإهانة والتحقير وبين الإكرام والتقدير فبينما كانت تستقبل شر استقبال حين تولد وتوأد وهى طفلة صغيرة عند بعض القبائل على نحو ما جاء فى كتاب الله عنهم قال تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[3] فكان العربى يغضب إذا ولدت امرأته بنتاً فيهجرها ولا يدخل عليها ، أورد الجاحظ فى الجزء الأول من البيان والتبيين حكاية عن أبى حمزة الضبى أنه هجر خيمة زوجته لأنها ولدت بنتاً فمر بخبائها يوماً فسمعها ترقصها وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا وهو فى البيت الذى يلينا
يغضب إن لم نلد البنينا والله ما ذلك فى أيدينا
إنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

انتشر وأد البنات بين القبائل العربية خشية العار والفقر حتى يقال : إن قيس بن عامر المنقرى وأد بضع عشرة من بناته فى الجاهلية فلما دخل فى الإسلام قال يوماً للنبى ﷺ : إنى وأدت اثنتى عشرة بنتاً » فأعظم النبى منه هذا الفعل وقال له : « **اعتق عن كل واحدة نسمة** » أسد الغابة .

فإذا كان قد حدث هذا فى بعض القبائل فقد فعل عكسه فى بعضها الآخر حيث

(1) نفس المرجع . (2) سورة النحل (85) .
(3) سورة التكوير (8) .

كانوا يكرمون المرأة فيتخيرون المرأة الطيبة الصالحة لنجابة الأولاد وكان العربى يذكر ذلك لأولاده فى مقام الامتنان عليهم بأنه اختار لهم الأم الكريمة المحتد كما قال الشاعر :-

وأول إحسانى إليكم تخيرى لماجدة الأعراق بادٍ عَفافُها

والآن . . مع إكرام الإسلام لهذا الجنس الذى طال غبنه وفدح ظلمه وقد تحدث القرآن عن المرأة حديثه عن الرجل قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره : تحدث عنهما كشريكين يقومان بإنجاب المجتمع والحفاظ عليه والحرص على تربيته قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾[1] . قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : « والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمر حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم » وعن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : **إنما النساء شقائق الرجاء** »[2] وتحدث عنهما باعتبار أنهما مسئولين أمام الله عن كل ما قدمت أيديهما فى الدنيا ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3] وتحدث عنهما باعتبار أن كلاً منهما له كيانه فى هذا المجتمع فهذا يبيع ويشترى ويدعى ويشهد ويزوج ويتزوج وتلك تبيع وتشترى وتدعى وتشهد وتزوج وتتزوج قال تعالى ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[4] وتحدث عنهما من حيث الاختيار والاصطفاء فاصطفى الله من الجنسين على السواء ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[5] وتحدث عنهما فوضعهما فى إطار واحد من الصلاح والتقى قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

(1) سورة النساء (1) .
(2) المسند ج (6) .
(3) سورة النحل (97) .
(4) سورة النساء (32) .
(5) سورة آل عمران (33) .

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

وتحدث عن دور المرأة مع الرسالات الأولى : فى عهد موسى تحدث عن أربع نساء كان لكل واحدة منهن عمل كبير نحو موسى - فالأولى - (أمه) : تقوم بإرضاعه ثم بإلقائه فى اليم بعد عملية إحكام الصندوق ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [2] .

والثانية - (أخته) قامت بدور التغطية والتتبع حتى وصلت إلى قصر فرعون وعملت على إرجاعة ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** ﴾ وهكذا بدهاء المرأة أرجعته إلى أمه مرة أخرى ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ** ﴾ ، والثالثة - (آسيا) : استطاعت أن تخلص الصغير من كيد فرعون الغشوم وقد هم بقتله ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ والرابعة : (ابنة شعيب) : أبلغت أباها بموقفه العظيم يوم أن سقى لهما ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا** ﴾ مهدت لهذا اللقاء الكريم الذى انتهى بالزواج الطيب المبارك ﴿ **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ** ﴾ .

وجاء الإسلام فكانت المرأة معه من أول يوم : لما رجع رسول الله ﷺ من غار حراء يرجف فؤاده بعد نزول الوحى عليه أول مرة وقفت « خديجة بنت خويلد » زوجه تهدئ من روعه وتشد أزره « كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم

---

(1) سورة الأحزاب (35) .	(2) سورة القصص (7، 8) و (11) و (23) .

وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر » ويمضى بنا الزمن فى تاريخ الدعوة الإسلامية حتى نقف أمام رسول الله ﷺ والصحابة وجهاً لوجه عند الحديبية والصحابة مكروبون فقد وقفت قريش تصدهم عن زيارة البيت وبعد مفاوضات ومناقشات وشروط وعهود قرر الرسول أن يرجع بدون زيارة وعندئذ أصدر الرسول أمره للمسلمين أن يتحللوا من إحرامهم ويذبحوا هديهم فلم يسرعوا لأنهم وجدوا فى شروط الهدنة إجحافاً لحقهم وامتهاناً لكرامتهم فدخل غضبان على زوجه أم سلمة قائلاً « **هلك المسلمون يا أم سلمة !! أمرتهم فلم يمتثلوا** » وفى رويَّة وأناة قالت له : اعذرهم يا رسول الله فقد حملت نفسك أمراً عظيماً فى هذا الصلح ورجعوا دون فتح ولا حج فهم لذلك مكروبون ، والرأى أن تخرج فتذبح هديك وتحلق رأسك فإذا رأوك فعلت هذا تبعوك وهم مؤمنون بك ، فانشرح صدر النبى وفعل : فتسابق المسلمون إلى الحلق والذبح » .

هكذا !! أبرز الإسلام دور المرأة فكانت قرينة الرجل فى الحقوق والواجبات : اعترف بإنسانيتها مثل الرجل وبين وضعها فى الأسرة وأعطاها معظم حقوقها المدنية كما أعطاها حقها فى الميراث والنفقة والتعليم والثقافة والعمل إلا ما كان من أمر الطلاق والنفقة والميراث والشهادة والقوامة على الأسرة والأعباء الاقتصادية فإن هذه الأمور روعى فيها جانب الرجل لخصائص فى طبيعته لا توجد عندها وهذا وضع اللطيف الخبير الذى خلق الجنسين ويعلم خلقتهما .

وجاء الإسلام..!

نعم . . وجاء الإسلام فجاء بالخير كله ، جاء بالعدل ودحض الظلم ورفع الغبن ويطول بنا القول لو تتبعنا كل صور العدالة وحسبنا ما قدمناه لأن الكلام عن أمر معين هو إعطاء المرأة والصغير نصيباً من الميراث اعترافاً بهما وتنويهاً بشأنهما وحفظاً لحقهما وقرابتهما وهو أمر لم يكن له وجود من قبل ولمْ يفكر فيه مصلح بل لم يكن يخطر لأحد قط على بال .

والميراث من حيث إنه ميراث ينبغى أن يهتم به المسلمون أبلغ اهتمام من أجل

الحرص على بيان هذه الأنصبة وحفظها وإعطائها لأصحابها كاملة وذلك كان فعل الصحابة فكانوا كثيراً ما يتحدثون فيه نظراً لاهتمام النبى ﷺ به ، وروى الدارقطنى وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « **تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنها نصف العلم وهو ينسى وهو أول شئ ينزع من أمتى** » وذكر الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **تعلموا القرآن وعلموه الناس وتعلموا الفرائض وعلموها فإني امرؤ مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان فى الفريضة والمسألة فلا يجدان أحداً يخبرهما** » وروى أبو داود وابن ماجه عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « **العلم ثلاثة وما سوى ذلك فضل : آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة** » .

والآن . . وقد ظهر فضل الإسلام وحدبه على هؤلاء الضعفاء يحسن أن نبين السهام المقدرة لكل واحد من الورثة - ذكراً كان أو أنثى صغيراً أو كبيراً - وبين يدى البيان نذكر سبب نزول الآيات « يوصيكم الله . . الآيات » اختلفت الروايات فى سبب نزول الآيات الثلاثة المتقدمة (آيات المواريث) فروى الترمذى وأبو داود وابن ماجه والدارقطنى عن جابر عن عبدالله أن امرأة سعد بن الربيع قالت : يا رسول الله إن سعدا هلك وترك بنتين وأخاه فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد وإنما تنكح النساء على أموالهن فلم يجبها فى مجلسها ذلك ثم جاءته فقالت : يا رسول الله ابنتا سعد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **ادع لى أخاه** » ، فجاء فقال له : « **ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقى** » وروى جابر أيضاً قال : عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سلمة يمشيان فوجدانى لا أعقل فدعا بماء فتوضأ ثم رش علىّ منه فأفقت فقلت : كيف أصنع فى مالى يا رسول الله ؟ فنزل ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾ ، وقيل : نزلت - آية الكلالة - والنبى ﷺ متجهز لحجه ونزلت بسبب جابر : قال جابر بن عبدالله : مرضت فأتانى رسول الله ﷺ وأبو بكر يعودانى ماشيين فأغمى علىّ فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب علىّ من وضوئه فأفقت فقلت : يا رسول الله كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يرد علىّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ** ﴾ رواه مسلم .

وهذه هي جملة السهام التي يستحقها كل وارث أو بعبارة أخرى : بيان الفروض المقدرة أخذاً من هذه الآيات الثلاث : إن الفروض المقدرة في القرآن الكريم ستة : النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس .

1- **النصف** : وهو مذكور في ثلاثة مواضع من الآيات : نصيب البنت إذا كانت واحدة ولم يكن معها من يعصبها وهو ابن المتوفى المباشر ذلك في قوله تعالى ﴿ **وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** ﴾ وهي البنت الصلبية ومثلها في هذه الحالة – تماماً إذا لم توجد – بنت الابن قياساً على البنت بإجماع العلماء وهو أيضاً – النصف – نصيب الزوج في قوله تعالى ﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ** ﴾ وهو كذلك نصيب الأخت الشقيقة إذا انفردت وليس معها أخ شقيق أو من يحجبها من الورثة لقوله تعالى ﴿ **إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ** ﴾ والمراد الأخت من الأب والأم ، أو من الأب فقط إذا لم توجد الشقيقة .

2- **الربع** : وقد ذكر في موضعين في قوله تعالى : - في ميراث الأزواج - ﴿ **فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ** ﴾ والزوجات في قوله تعالى : ﴿ **وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ** ﴾ .

3- **الثمن** : وذكر في قوله تعالى في نصيب الزوجات : ﴿ **فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ** ﴾ .

4- **الثلثان** : ذكره الله تعالى في نصيب البنات بقوله : ﴿ **فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ** ﴾ وقيس بنات الابن على البنات عند عدمهن ، وذكر أيضاً في نصيب الأختين فأكثر من الأب والأم ، قال تعالى : ﴿ **فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ** ﴾ فإن لم يكُنَّ فيكون نصيباً للأختين فأكثر من الأب إذا لم يوجد معهن أخت شقيقة أو أخ لأب يعصبهن ودليله نفس الآية .

5- **الثلث** : ذكره الله في موضعين ، نصيب الأم إذا لم تحجب حجب نقصان إلى السدس قال تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ** ﴾ ونصيب

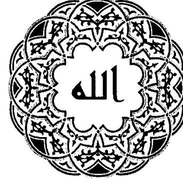
الاثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات من ولد الأم قال تعالى : ﴿ **فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ** ﴾ .

6- **السدس** : ذكر فى أكثر من موضع فهو نصيب الأم مع الولد أو ولد الابن أو اثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات ﴿ **وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ** ﴾ ونصيب الجدة الصحيحة عند عدم الأم ، روى أبو داود عن بريدة رضى الله عنه أن النبى ﷺ : جعل للجدة السدس إذا لم تكن دونها أم ، ونصيب بنت الابن مع بنت الصلب لقضائه ﷺ بذلك فى رواية البخارى عن ابن مسعود ، ونصيب الأخت من الأب مع الأخت من الأب والأم قياساً على بنت الابن مع البنت ، ونصيب الجد عند عدم الأب قياساً على الأب بالإجماع ، ونصيب الواحد من ولد الأم ذكراً كان أو أنثى لقوله تعالى : ﴿ **وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ** ﴾ .

فقد ظهر من استعراض هذه الفروض المقدرة أن الذى يستحقها اثنا عشر شخصاً أربعة من الرجال وثمانية من النساء كما سبق ، فالرجال هم : الأب والجد الصحيح (أبو الأب) وإن علا والأخ لأم والزوج ، والنساء هن : الزوجة والبنت وبنت الابن وإن نزلت والأخت الشقيقة والأخت لأب والأخت لأم والأم والجدة الصحيحة وهى التى لا يدخل فى نسبتها إلى الميت جد فاسد أى رحمى وهو من يدلى إلى الميت بأنثى .

أرأيت إلى دقة العدالة فى التوزيع والعطف على النساء والرحمة بهن بعد أن حرمن منها زمناً طويلاً ، لقد حفظ الإسلام لهن حقهن حتى لم يبقى منهن واحدة محرومة لمجرد أنها امرأة ، وخبرنى بربك هل بقى بعد هؤلاء الثمان قريبة للميت ؟ لقد بحث الإسلام عنهن ونقب وتحسس حتى استطاع أن يعرفهن ويحدد قرابتهن وبذلك أعطى كل واحدة ما تستحق ولقد وجدت أن معظم الحاصلين على الميراث من النساء فأين هذا مما كان يحدث فى الأزمان الماضية ، كانت تورث لا أن ترث

وكانت تباع بيع السائمة لا أن تبيع وتشترى وكانت لا إرادة لها ، لا أن تتصرف فى أموال لها ومتاع ، نقول ذلك لدعاة التقدمية الذين يدعون أن المرأة مظلومة ويطالبون بحقها ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (1) .



(1) سورة التغابن (8) .

الفصل الثالث

الوصيــة الخــالــدة

- هذا الخلق الكريم
- لحمة هذا الدين وسداه
- درع المؤمن فى كل زمان ومكان
- بالتقوى تزيد النعم
- ينبوع للأدب شعرا ونثرا

قال الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ (1) .

***

هذا الخلق الكريم

التقوى : هذه الكلمة الجليلة الشأن التى تدل على ما فى نفس صاحبها من إنابة إلى الله وصدق معه . . .

المتقى : من يتقى بالعمل الصالح والدعاء المخلص عذاب الله تعالى ، مأخوذ من اتقى المكروه : إذا جعله حاجزاً بينه وبينه : (عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال : قال يوماً لابن أخيه : يا ابن أخى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ، قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقى ثم قال : يا ابن أخى ترى الناس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ، قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم » وقال أبو يزيد البسطامى : (المتقى من إذا قال قال لله ومن إذا عمل عمل لله) وقال أبو سليمان الدارانى : « المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات » وقال بعض العارفين : « هذه الآية - أى السابقة - هى رحى القرآن لأن جميعه يدور عليها » .

والتقوى بهذا المعنى العظيم من تعاليم الأنبياء والمرسلين وسبيل المؤمنين المصلحين .

وأصل عظيم من أصول الدين ما وجدت فى أمر إلا أيدته وزانته وما خلا منها عمل إلا ضاعت منه البركة والإحسان والدقة والإتقان ، قال معاذ بن جبل : ينادى يوم القيامة أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر »

(1) سورة النساء : (131 - 133) .

قالوا له : من هم المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله بالعبادة » وقال أبو الدرداء : « تمام التقوى أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً حجاباً بينه وبين الحرام » .

وعلى ذلك يكون الأصل لمعنى التقوى : أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويخشاه وقاية تقيه منه وتحفظه من شره وبهذا يكون معنى تقوى العبد لربه : أى أن يجعل بينه وبين ما يخافه من ربه ويخشاه من غضبه وعقابه وقاية تقيه منه وحجاباً يحجبه من غضبه وحاجزاً يحجزه عن الطرد من رحمته وذلك يكون بالقيام بطاعته واجتناب معاصيه وامتلاء النفس بهذا المعنى امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة وشدة الحرص على تحقيق أوامر الله وإحلال تشريعاته بين خلقه واللجوء إليه فى كل أمر من الأمور تحقيقاً لها على أرضه ومعرفة لأسراره فى كونه وفهماً لدعائم سنته فى خلقه وأيضاً معرفة هذه الأسرار وكيف تكون مع أسباب الحياة فى الدنيا من عزة وسعادة وغنى وتعاسة وبذلك يعيش الإنسان ويحيا حياته وقد فهم أصول الحياة وأسبابها ومسبباتها ، ورد فى تفسير ابن كثير أن عمر بن الخطاب سأل أبيّ بن كعب فقال : « هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم قال : فما عملت فيه ؟ قال : شمرت واجتهدت قال : فذاك التقوى » .

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه : -

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وبهذا الفهم لمعنى التقوى سوف يذعن الإنسان لأمر الله ونهيه إقبالاً على حبه وطاعته واتقاء لعقوبته وابتعاداً عن غضبه وسخطه وملازمة لفضائله وتركاً للرذائل وقياماً بما فرضه وأوجبه وفهماً لكل ما نهى عنه وحرمه .

فالتقوى - إذن - هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى مضافاً إليها ذلك المعنى

العظيم المستكن فى النفس الذى تفنى به إرادة الإنسان فى الملكوت العظيم الذى خلقه الله وسواه وذلك عن طريق المراقبة لله فى كل عمل من الأعمال فى الخلوة والجلوة فى الظلمة والضحوة فإن الله مطلع على الإنسان ورقيب ، فقد قال تعالى ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾(1) قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها » وعنه « هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها » وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(2) وقال عز شأنه : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⁽٦⁾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(3) .

وسوف تثمر هذه المراقبة لله عز وجل وتلكم التقوى طاعة لله وحباً ووجلاً منه وخوفاً وإذعاناً لعظمته وخضوعاً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⁽١٨⁾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(4) وقال رسول الله ﷺ « **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن** » .

لحمة هذا الدين وسداه

وهذه مجموعة كبيرة من أوامر الله ونواهيه ذكرت معها التقوى فما من أمْر أمَر به الله وما من نهْى نهَى عنه الله إلا رأيت التقوى بدءاً له وتمهيداً وختاماً له و تذييلاً فكانت بذلك لحمة هذا الدين وسداه ودارت مع الأوامر فى نداءات الله إلى عباده بوصف هو أحب ما يكون إلى قلب المؤمن وهو وصف الإيمان استنهاضاً لهمم الصادقين وتنبيهاً لعزائم المخبتين .

(1) سورة غافر (19) .
(2) سورة المجادلة (7) .
(3) سورة طه (7) .
(4) سورة الحشر (18) .

ه نداءات آمرة علَّ فيها ما ينبه الناس إلى ما يجب أن يكونوا عليه من طاعة وإخبات وصدع بأمر الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[4] .

وهذه نداءات أخرى ناهية علَّ فيها ما يزجر النفس عن التهجم على ما حرم الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[7] وقال عز شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[9] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[10] وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا

(1) سورة البقرة (278) .
(2) سورة البقرة (183) .
(3) سورة المائدة (35) .
(4) سورة التوبة (119) .
(٥) سورة ال عمران (102) .
(6) سورة آل عمران (130) .
(7) سورة المائدة (2) .
(8) سورة المائدة (8) .
(9) سورة المائدة (57) .
(10) سورة الحجرات (1) .

خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾[1] وهذه آية الدين ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾[2] التي جمعت كثيراً من الأوامر والنواهي بشأن المال والاقتصاد والمعاملات والكتابة والإشهار وغير ذلك .

وهناك مجموعة أخرى من آيات الكتاب العزيز اشتملت على كثير من النصائح الغالية والآداب العالية والفضائل السامية ونفرت من الشرور والرذائل وكانت التقوى أساساً لها وسناداً .

هذه آية البر ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ تختتم بقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[3] .

وهذه آية القصاص التي رسمت طريق الاستقرار والأمن في المجتمع جاءت

(1) سورة الحجرات (11) . (2) سورة البقرة (282) .
(3) سورة البقرة (177) .

التقوى ختاماً لها ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] وهذه آية الوصية التى كانت سبيلاً إلى مرضاة الله عز وجل ورحمة بالأقارب والمحتاجين ختمت بها كذلك ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[2] ولما أمر الله المسلمين أن يردوا اللطمة باللطمة والضربة بالضربة تأديباً للطغاة البغاة المتسلطين كان ذلك بآية كريمة ختمها بالأمر بالتقوى حتى لا يكون هناك تجاوز ربما دفع إليه الغيظ والحنق على أعداء الله وأعداء الحياة ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[3] وهذه آية حرمت الدخول إلى البيوت إلا بما هو واجب لها من مراعاة أدبها الذى يجب صوناً لحرمتها حتى تظل مصونة ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] وهذه آيات الحج ختمت مرة بقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومرة أخرى بقوله تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ وختمت مرة ثالثة بقوله تعالى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[5] .

وهذه آية الطلاق : والطلاق مظنة الحيف والجور على المرأة والاعتداء على حقوقها : ختمت بقول ربنا تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[6] وهذه آية الرضاع حتى يأخذ الطفل حقه من الرضاعة والعناية ولا يكون هناك تهاون فى هذا الواجب الخطير

(1) سورة البقرة (179) .
(2) سورة البقرة (180) .
(3) سورة البقرة (194) .
(4) سورة البقرة (189) .
(5) سورة البقرة (196) .
(6) سورة البقرة (231) .

ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(1) وهذه آية المتعة للمطلقة كي تأخذ المرأة حقـها إذا وقع مـا لابد منه قال تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾(2) ختمت بالتقوى كغيرها .

درع المؤمن فى كل زمان ومكان

وفضيلة التقوى أخذت على الإنسان كل طريق وأحاطت به من كل جانب وشملته من كل نواحيه : فى سلمه وحربه فى نومه ويقظته فى قوله وفعله فى علمه وفهمه فى سمعه وبصره فى سره وعلانيته فى حلِّه وترحاله وكانت وصية الله للأولين والآخرين من لدن آدم أبى البشر حتى خاتم الأنبياء والمرسلين إلى الأمة الإسلامية قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾(3) فكانت بهذه الشأن الخطير كلمة جامعة ورسالة هداية وإصلاح وشأناً عاماً جاء به جميع الأنبياء والمرسلين مما يدل على أن موجبات تقوى الله عامة فى جميع الأمم والشعوب وبذلك التقت رسالات الرسل أولهم مع آخرهم على هذه الكلمة الحانية الرحيمة الحبيبة على هذه الرسالة الهادية والإصلاح الشامل العام .

فقد قالها نوح عليه السلام لقومه لما كذبوه وسخروا منه ﴿ ... أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(4) .

وقالها هود عليه السلام لقومه : - تذكيراً لهم بنعمة الله عليهم - ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ

(1) سورة البقرة (233) .
(2) سورة البقرة (241) .
(3) سورة النساء (131) .
(4) سورة الشعراء (110) .

رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[1] .

وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود منبهاً لهم بنعمة الله عليهم وناهياً عن اتباع طريق الفساد والمفسدين ﴿ . . . أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [2] ، وهذا لوط عليه السلام يقولها لقومه - وقد ارتكبوا فاحشة لم يسبقهم بها أحد من قبلهم - ﴿ . . . أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

ونتابع السير مع الزمن حتى نصل إلى قوم شعيب فنسمع هذه الوصية يأمرهم فيها بأوامر وينهاهم عن نواه ﴿ . . . أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾[4] .

وأخيراً !!! نسمع هذه الكلمة الطيبة والموعظة الغالية من فم إلياس - عليه السلام - كما قال الله تعالى عنه - : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾[5] .

---

(1) سورة الشعراء (134) .
(2) سورة الشعراء (152) .
(3) سورة الشعراء (164) .
(4) سورة الشعراء (184) .
(5) سورة الصافات (126) .

بالتقوى تزيد النعم وتذلل الصعاب

وفضيلة التقوى أساس كبير لمجموعة عظيمة من نعم الله على عباده وبدونها لن يكون الناس على هداية ونور فقد ذكرها ربنا عز شأنه مقرونة بنعمة الخلق والإيجاد وما أعظمها من نعمة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(1) .

وذكرها مقرونة بنعمة الرزق الكثير حتى تنميه وتطرح البركة فيه قال تعالى : ﴿ ولو أن أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(2) .

ثم ذكرها سبحانه وتعالى على أنها تفتح للمرء مغلقات الأمور وتيسر له معضلاتها وتجعل له الخير في صوره كلها وتكفر له ذنوبه وتمحوها ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾(3) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(4) .

ثم ذكرها ربنا تبارك وتعالى على أنها توضح للناس طريق الهدى والنور والسداد والتوفيق والعلم والصلاح والاستقامة والسعادة : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(5) .

---

(1) سورة النساء (1) .
(2) سورة الأعراف (96) .
(3) سورة الطلاق (5) .
(4) سورة الأنفال (29) .
(5) سورة يونس (62) .

وفضيلة التقوى قد بينها القرآن الكريم بياناً آخر شافياً وسلك بها طريقاً جديداً ففتح بها منافذ أخرى للخير والبر والإحسان فأضاف إلى ما سبق مناحى عظيمة تعود على الفرد والمجتمع بالخير العميم فى الدنيا والآخرة فكانت نصف الأخلاق الكريمة وشطر الخصال الحسنة فأخذت مكانة الصدارة مع مجموعة من هذه الفضائل .

فكانت مع الإحسان تشكل الخلق الكريم فى معاملة الزوجات والتجاوز عن هفواتهن والعدل فى معاملتهن وعدم الجور عليهن قال تعالى : ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾(1) .

وهى مع الصلح تمثل أساساً كبيراً يقوم عليه بناء الأسرة المستقرة السعيدة قال تعالى : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾(2) .

وهى مع الصبر ترسم طريقاً واضحاً إلى النصر على الأعداء فى ميادين الكفاح والجلاء والفداء والقتال ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ (3) .

وهى مع الإيمان تربى شخصية سوية فاضلة صالحة على معانى الخير الوفير والأجر الكثير قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ** ﴾ (4) .

وهى - بعد هذا كله - أساس مكين ودستور قويم وتوجيه ربانى رحيم للكلام المفيد والحديث الطيب والقول الحسن ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ (5) .

---

(1) سورة النساء (128) .
(2) سورة النساء (129) .
(3) سورة آل عمران (125) .
(4) سورة محمد (36) .
(5) سورة الأحزاب (71) .

وفضيلة التقوى أخذت من القرآن اهتماماً كبيراً ونالت منه درجة عالية وحظيت عنده بمكانة سامية فلم يكن حديث القرآن عن التقوى حديثاً عابراً وإنما كان حديث الباحث الذى يكشف جوانب الشئ المتعددة كى يسير الإنسان على هداية وفهم . . .

فالله عز وجل قد جعلها وقاية للإنسان من عذاب النار وهول يوم القيامة ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(1) وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(2) .

والله عز وجل سوف ينزع البركة والخير والقوة والعزة من المجتمع عندما يتخلى عن واجبات التقوى ويتنكب طريقها ويتركه نهباً لنزغات الشيطان وعبث المفسدين ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾(3) .

والله عز وجل جعل أهل التقوى فى بعد عن وساوس الشيطان وهواجسه من أجل أنهم فى ذكر دائم لله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(4) .

والله عز وجل جعل المتقين أهل عقيدة فاضلة وإيمان عميق ويقين صادق فى رسالة الله وشرعه قال تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا﴾(5) فكان جزائهم على ذلك ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

والله عز وجل يحفظ أهل التقوى بعنايته ويرعاهم بقدرته ويمدهم بتوفيقه وهداه ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾(6) .

---

(1) سورة البقرة (123) .
(2) سورة آل عمران (131) .
(3) سورة المائدة (65) .
(4) سورة الأعراف (201) .
(5) سورة النحل (30) .
(6) سورة النحل (128) .

والله عـز وجل يذهب بهـؤلاء المتـقين إلى جنات النعـيم والدرجـات العلى جماعات مكرمين ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾(1) وإذا ذهبوا إلى الجنة فسيجدون فيها الأماكن مهيأة والغرف معدة ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾(2) .

ينبوع للأدب الرفيع شعراً ونثراً

وعلى هذا الهدى الإلهى وعلى هذا البيـان الربانى لمعـانى التقـوى ومناحيـهـا وجوانبها المختلفة ومواطنها وأماكنها سار السلف الصالح ففهموا هذه المعانى السامية لهذه الفضيلة العظيمة فنطقت بهم ألسنتهم وتتبعتها قلوبهم وربوا عليها أبناءهم وكان كلامهم عنها أدباً يهتدى به ونوراً يسير الناس فى ضوئه .

خطب أبو بكر – رضي الله عنه – فقال : « أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .

وقال يوصى عمر بن الخطاب : « إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبل بالنهار وعملاً بالنهار لا يقبل بالليل وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . . . . » .

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبدالله بن عمر – رضى الله عنهما – فقال : أما بعد !!! فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل فإن من اتقاه وقاه ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك » .

واستعمل الإمام علىّ بن أبى طالب – كرم الله وجهه – رجلاً على سرية

(1) سورة الزمر (73). (2) سورة الزمر (20).

فـقال له : « أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لابد لك من لقاه ولا منتهى لك دونه وهو يملك أمر الدنيا والآخرة » .

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى رجل فقال له : « أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثبت إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل جعلنا الله وإياك من المتقين » .

وكتب رجل من السلف إلى أخ له فقال : « أوصيك بتقوى الله فإنها من أكرم ما أسررت وأزين ما أظهرت وأفضل ما ادخرت أعاننا الله وإياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها » .

وقال عبدالله بن شداد يوصى ابنه : عليك بتقوى الله العظيم وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية فى السر والعلانية فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد وكن كما قال الحطيئة :-

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خـيـر الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
ومـا لابـد أن يأتى قريـب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وقال الشاعر عبد قيس يوصى ابنه :

أجبيل إن أبـاك كاربَ يـومُه ... فإذا دعيت إلى العظائم فاعجل
أوصيك إيضاء امرئ لك ناصح ... طبنُ بريب الدهر غير مغـفَّل
اللـه فاتـقه وأوف بـنذره ... وإذا حلفت ممـارياً فتحـلَّل

وقال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى :

إن الفتى مَنْ بماضى الحزم متصف ... وما تعود نقص القول والعـمل
ولا يصد عن التقوى بصـيرته ... لأنها للمعالى أوضـح السـبل
فمن تكن حلة التقوى ملابسـه ... لا يخش فى دهره يوماً من العطل

وقال الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : من قصيدة طويلة :-

تبــــاً لدار لا يدوم نعيمـــــها ومشيدها عما قليل يخرب
فاسمع هديت نصائحاً أو لا كها برٍّ نصوح عـــاقل متأدب
أهدى النصيحة فاتعـــظ بمقـاله فهو التقى اللوذعى الأدرب
لا تأمن الدهر الصـــروف فـإنه لا زال قدماً للرجال يهـذب
فعليك تقوى الله فالزمها تـــفز إن التقى هو البهى الأهيـب

وقال أبو الفتح البستى يوصى ابنه :- من قصيدة طويلة :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
واشدد يديك بحبل الله معتـــصماً فإنه الركن إن خانتـك أركـان
من يتق الله يحمـد فى عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
من استعان بغير الله فـى طلـــب فإن ناصره عجـز وخـذلان

وقال الشيخ عمر بن الوردى يوصى ابنه من قصيدته اللامية :-

اعتزل ذكرى الأغانى والغزل وقل الفصل وجانب من هــزل
ودع الذكرى لأيـــام الصـــبا فلأيام الصبـا نجــــم أفــل
واهجر الخمرة إن كنـت فتـى كيف يسعى فى جنون من عقل
واتق الله فتقوى اللـه مـــا جاورتٍ قلب امرىء إلا وصـل
ليس من يقطع طرقاً بطـــلاً إنما من يتقـى اللـه البطـل

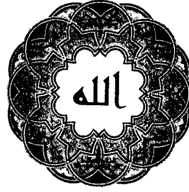
وقال أحد الشعراء :-

لم يجدك الحسب العالى بغير تقى مولاك شيئاً فحاذر واتق الله
وابغ الكرامة فى نيل الفــخار بـه فأكرم الناس عند الله أتقاها

وقال صالح بن عبدالقدوس: -

عليك بتقوى الله فالزمها تفز ... إن التقى هو البهى الأهيب

واعمل بطاعته تنل منه الرضا ... إن المطـيع لربــه لمقــرب



الباب الثاني

دستور المجتمع الرشيد

الفصل الأول

صدق العقيدة وصفاء التوحيد

- منارات قرآنية هادية
- المرسلون وقضية التوحيد
- من صور الشرك وأنواعه

صدق العقيدة وصفاء التوحيد

﴿ . . . . ألا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وينبغى أن يكون معلوماً أن معنى الشرك هنا : أن يجعل لله شريكاً فى ملكه يتوجه العباد إليه بالرجاء فى جلب النفع ودفع الضر وغير ذلك مما هو من خصائص الألوهية ، فمن فعل ذلك يكون قد أشرك مع الله شريكاً آخر وهو ما نهت عنه الآية وغيرها من آيات القرآن فقد تحدثت الآيات عن الشرك والمشركين على أنهم انحرفوا فى فهمهم فتصوروا النفع والضر فى أشياء تميزت عن غيرها أو هكذا ظنوا : هذا هو معنى الشرك الذى عالجه القرآن قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(1) فمن اعتقد أن غير الله يستطيع أن ينفع أو يضر فقد أشرك بالله تعالى ، ومن أجل ذلك كان الشرك شذوذاً وخبلاً واضطراباً يعترى النفس حين يخف الإيمان فيها فتخرج عن الطريق المستقيم والسلوك الرشيد ولا تستطيع أن تميز بين حق وباطل . . . وليس الشرك بمعنى إنكار الألوهية فإنه الكفر الصراح ، فلو أن إنساناً أهدى إلى إنسان آخر خيراً أو يسر له أمراً أو صنع معه جميلاً أو دله على رشاد أو دفع عنه مكروهاً أو حفظه بظهر الغيب فإن مقتضى الأدب الجميل ومنطلق العقل السليم وطبيعة الفهم المستنير تقضى بإخلاص الإنسان لمن فعل معه ذلك كله إخلاصاً دائماً وعميقاً ضرورة أن الإنسان بما زود به من فكر وبما وضع فى كيانه من إدراك يستطيع أن يميز بين الخير والشر والنافع والضار وإذا كان ذلك هو الواجب من الإنسان لأخيه الإنسان فإنه يتأكد بصورة أوضح وبقدر أكبر من الإنسان لربه الرزاق الوهاب ، إذا كان هذا هو الواجب من الإنسان لأخيه الإنسان فإنه يجب بنظام رتيب وبضرورة ملحة من الإنسان لربه الكبير الخالق الحفيظ المحيى المميت النافع الضار ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(2) وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ . . ؟ ﴾ .

﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ! ! أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ ؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(3) ؟ .

---

(1) سورة يوسف (106) . (2) سورة فاطر (15) .
(3) سورة يونس (35) .

إن الناس فى عصر الآلة والعلم التجريبى أصبحوا محتاجين إلى الإيمان بالله وحده والرجوع إليه فى كل أمورهم أكثر من أى عصر مضى حيث كشف لهم من مساتير الكون ومغيباته ما يجعلهم جديرين بإعمال عقولهم وتفكيرهم فى أسرار الحياة المختلفة ويجعلهم حريين بالإنابة إلى الله القوى القادر الذى أراهم رأى العين من بديع صنعه ما تعجز عن فهم أسراره أفئدة الراسخين من العلماء ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (1) .

منارات قرآنية هادية

وقد شرح القرآن الكريم العقيدة المثلى الصافية فى عالم الغيب وما وراء الطبيعة والتى يجب أن تسود الأفكار والنظريات ويربى عليها الأفراد والشعوب والجماعات حتى تتخلص القلوب من لوثات الشرك وتبقى صافية مؤمنة بربها سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(2) .

وقال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ (3) .

تحدث القرآن الكريم عن الله تبارك وتعالى خالق القوى والقدر والملائكة واليوم الآخر وتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار والثواب والعقاب فكان حديثاً بيناً شافياً يسكن إليه القلب ويغمر النفس بالإيمان واليقين فلم يحلق بالإنسان فى عالم الخيال أو يسير به فى متاهات الوهم والخيال وإنما عاش بالإنسان فى البيئة التى نشأ فيها وساق له الحقائق التى تفرض نفسها عليه .

فى ثنايا القرآن الكريم تقرأ حديثاً عذباً جذاباً عن السماء ومن فيها وعن الشمس والقمر والنجوم ومساراتها ومداراتها وآثارها وإنك لواجد مثله عن الجبال وما فيها

(1) سورة النمل (88) . (2) سورة الأنبياء (25) .
(3) سورة الأعلى (1 - 5) .

وفوائدها والزروع والثمار وأنواعها ومنافعها وحديثه عن النفس الإنسانية زاد عن كل حديث وكثر على كل كلام وغرضه الأول من سوق هذا كله أن يتعرف العباد على ربهم الذى خلقهم ورزقهم وأوجدهم من العدم ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] هل يفعل ذلك غير الله ؟ .

أنكر الكافرون أن يبعثوا مرة ثانية مستكثرين ذلك على القدرة الإلهية القاهرة ووقع فى هذا الإنكار شعوب بأسرها - قديماً وحديثاً - ومازلنا نسمع ونرى هذا الجحود والنكران فى مناطق شتى من العالم باسم العلم والمعرفة والتجربة والنظرية فكان هذه الاستفهام خير ما يرد عليهم ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[2]هل يفعل ذلك غير الله ؟؟ .

عالج القرآن الكريم عقيدة التوحيد الصافية والتنزيه لله عن الشريك والند والولد والشبيه وهى - لا شك - عقيدة العقل السليم والفكر المستنير والضمير النقى بمنطق العقل والوجدان فى وقت واحد ، فيسوق الدليل متسقاً مع العقل السليم ، متفقاً مع طبيعة الوجدان المستنير فلا تملك النفس الخاشعة - بعد سماعه - إلا الإذعان والتسليم بالإيمان بالله الواحد القهار ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3]وقال تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن

(1) سورة الذاريات (49) . (2) سورة النازعات (27 - 33) .
(3) سورة البقرة (164) .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[1] هل يفعل ذلك غير الله ؟؟؟ .

إن حديث القرآن عن الله فاق كل حديث وبلغ النهاية من عمق الفكرة ودقة التدليل وملاحقة العقل والوجدان فى كل ميدان من ميادين الحياة والبيئة مما يجعل الإنسان يحس ويسمع عن قرب كأنه يشاهد مجلس حوار هادئ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ؟ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ؟ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

وإليك حوار من لون آخر لا يملك العقل السليم بعده إلا الإذعان لقضية الألوهية ﴿ قُلْ : مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ؟ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ ﴾ . هنا يتحير العقل كيف يجيب ولكن جواب المشركين معروف ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ وهنا يجئ الغرض من الحوار ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾[3] .

ولا يقف حديث القرآن عند آية أو آيتين بل هناك آيات كثيرة لفتت نظر الإنسان إلى الإيمان بالله ونفى أن يكون له شريك فى ملكه ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ وهذه علامة من علامات الإيمان من الأرض ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ويحث العقل علي التفكير فى أحوال النفس الإنسانية خاصة حين ينزل بها الكرب ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ وهذه هداية الله لا يمنحها غيره ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

(1) سورة الحجر (19 - 22) .
(2) سورة الطور (35 - 38) .
(3) سورة يونس (31 - 32) .

رَحْمَته أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه ﴾ ومن برأ النسم وساق الرزق وضمنه للناس أجمعين ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه ﴾ .

استفهامات متكررة تأخذ على العقل كل طريق وتلاحقه فى كل قضية وهو فى كل منها لا يستطيع أن يردها لأنها متفقة مع مقدمات عقلية وتنتهى إلى نتائج فكرية وفي كل ذلك لابد من إذعان العقل لها وتسليمه بها وإذا لم يذعن لها العقل وإذا لم يهتد بها ففيه لا محالة خلل وفيه لا شك ضعف وذلك سر ما تنتهى به الآيات الكريمة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ وختام الثانية ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ونهاية الثالثة ﴿ مَّعَ اللَّه قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ونهاية الرابعة ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وكانت النهاية بالنسبة للخامسة ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [(1)] ، وثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم** » وورد فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **يقول الله تعالى : شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، يزعم أن لى ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن له كفوا أحد** » .

وحديث القرآن عن ربنا تبارك وتعالى يتجه - أولاً وقبل كل شئ - إلى توحيده وتنزيهه عن الولد والصاحبة والنظير فالله واحد لا شريك له فى ملكه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً وناقش قضية الشرك بمنطق العقل وسلطان البرهان وحاج المشركين وجادلهم وساق الأدلة التى تدمغ حجتهم وتبطل دعوتهم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[(2)] وبين ضعف الشركاء والأنداد الذين عبدوا من دون الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[(3)] ثم يتوجه الحديث بهذا الاستفهام إلى المشركين وفيه عتب وتأنيب على أنهم لم يفكروا فى صلاحية هذه المعبودات الباطلة التى أشركوها مع الله فى الكون

(1) سورة النمل (60 - 64) . (2) سورة الأحقاف (4) .
(3) سورة الأعراف (194) .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[1] إنها – إذن – أضأل من أن تخلق شيئاً ولو ضعيفاً ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[2] وستكون هذه المعبودات فى النار يوم القيامة مع من عبدوهم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3] .

ولما قال المشركون فى مكة للنبى محمد ﷺ : يا محمد انسب لنا ربك وغرضهم من ذلك : أن يبين لهم من ذهب أو من فضة إله الخير أو إله الشر إله الحرب أو إله النور كما كان معروفاً عند الأمم القديمة – نزل قول ربنا تعالى :– يتحدث عنه نفسه ﴿ قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[5] .

اقرأ هذه مرة ومرة ثم ارجع إلى فلسفة المتفلسفين فى عصر الحضارة الأولى لقد قال فلاسفة اليونان القدماء عن الله تعالى : إنه العقل الأول أو السبب أو الأصل الذى صدر عنه كل الكائنات أما كلام الله عن نفسه فجاء صريحاً واضحاً تستوعبه العقول وتتقبله القلوب ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ والقرآن الكريم بهذه التوجيهات المبثوثة فى ثناياه كان كتاب الوجود الإلهى الوسيع والكون الربانى الرحيب فانعكس على صفحاته كل شئ وعالجت آياته كل أمر واتفقت الفطرة السليمة مع إرشاداته وتوجيهاته من الأعرابى فى الصحراء إلى العالم المفكر فى المدينة قال الشاعر :

تأمل نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... وأزهار كما الذهب السبيك

(1) سورة الأعراف (191 – 192) .
(2) سورة الحج (73) .
(3) سورة الأنبياء (99 – 100) .
(4) سورة الإخلاص .
(5) سورة آل عمران (2) .

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال شاعر آخر :-

وفى كـــل شئ لـه آيـــة تدل على أنه الواحــد

وهكذا . . نرى النظرة الصائبة فى آفاق الكون مصدر هداية وعبرة للعقول المستنيرة عبر القرون والأجيال .

المرسلون وقضية التوحيد

وقضية التوحيد : كانت شغل المرسلين الشاغل فاستنفدت جل جهدهم من لدن آدم أبى البشر إلى عهد رسول الرسالة الخالدة والنبوة الجامعة محمد ﷺ وتعرضوا من أجلها لإيذاء شعوبهم واضطهاد أقوامهم .

والبشرية منذ أول عهدها بالحياة تأرجحت بين الإيمان بالله إيماناً صافياً مع الأنبياء تارة وبين الشرك والإلحاد فى غياب الإيمان تارة أخرى فكان الشرك هو السمة الظاهرة والفكرة الغالبة على أفكار الناس والبشرية فى أطوار مختلفة من حياتها كثيراً ما ألغت عقولها وتركت زمامها وتخلت عن دورها فى الحياة ونزلت عن المكانة التى أرادها لها ربها فتوهمت أنها أقل شأناً وأضعف عقلاً وأضأل مكانة من أن تتصل بربها مباشرة فاتخذت اله غير الله من الحجارة أو من البشر أو من النار أو من الأشجار من الأحياء أو من الأموات من الكواكب السيارة أو من الملائكة البررة وخلعوا عليها صفات التقديس والقدرة على جلب النفع ودفع الضرر وتقدموا لها بالنذور والقرابين وتقربوا إليها بأنواع الدعاء والعبادة ولجأوا إليها يستغيثون بها فى وقت الشدة وفعلوا ذلك كى تقربهم هذه الآلهة إلى الله رب العالمين وقالوا - كما تحدث القرآن عنهم - : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[1] .

ولذلك سموا مشركين لأنهم أشركوا مع الله غيره فيما هو مختص به من خصائص الألوهية مع أنهم كانوا مؤمنين بأن الله موجود وأنه خالق الكون ومدبره

(1) سورة الزمر (3) .

وحافظ العالم ومهيمن عليه فقد قال تعالى عنهم : ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ .... خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[1] وقال تعالى ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ... ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[2] .

ومن أجل ذلك كانت قضية التوحيد وهى القضية التى تحمل المرسلون فى سبيلها فوق طاقة البشر ونالهم بسببها كل أنواع المشقة والتعب من أقوامهم فصودرت حرياتهم واعتدى عليهم فجاءت آيات القرآن تعالج القضية من ألفها إلى يائها من أولها إلى آخرها فأثبتت الوحدانية لله عز وجل ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[3] .

ثم أمرت كل رسول أن يؤمن بهذه الحقيقة ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[4] كما أمرتهم بإبلاغ هذا إلى أقوامهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وبينت الآيات الكريمة أضرار التعدد والثنوية التى عرفت فى الفلسفات الأولى عند اليونانيين وقدماء المصريين من اعتقادهم فى وجود إله الخير وإله الشر وإله الحرب وإله النور وربة الخصب والنماء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[6] .

---

(1) سورة الزخرف (9).
(2) سورة العنكبوت (61 - 63) .
(3) سورة البقرة (163) .
(4) سورة الزمر (65) .
(5) سورة الأنبياء (23 - 25) .
(6) سورة المؤمنون (91) .

والآن نصحب المرسلين وهم يدعون إلى التوحيد ويرفعون رايته فقد وصى كل رسول أمته بعبادة الله وحده والتوجه إليه دون غيره لأن التوحيد أساس الدين : -

دعا نوح قومه إلى التوحيد فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(1) .

وقال هود عليه السلام ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(2) .

ودعا صالح عليه السلام قومه فقال : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(3) .

وقال شعيب عليه السلام داعياً قومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾(4) .

وأعلن إبراهيم عليه السلام هذه الدعوة على قومه وصاح بها في وجوههم فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(5) .

وهذا يعقوب - حفيده - عليه السلام يتوجه بها لبنيه فيقول : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(6) .

وهذا يوسف عليه السلام يعلن أنه متبع دعوة آبائه الكرماء ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (7) .

وقال يونس عليه السلام - في وقت الكرب والشدة - ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ

(1) سورة الأعراف (59) .
(2) سورة الأعراف (65) .
(3) سورة الأعراف (73) .
(4) سورة الأعراف (85) .
(5) سورة الأنعام (79) .
(6) سورة البقرة (133) .
(7) سورة يوسف (38) .

منَ الظَّالمينَ ﴾ (1) .

وقـالهـا مـوسى عليه السلام : ﴿ إِنَّمَـا إِلَهُـكُمُ اللَّهُ الَّذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾(2) .

وقالها عيسى عليه السلام لقومه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّـكُمْ فَاعْـبُدُوهُ هَـذَا صِـرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(3) .

وهكذا نجد كل رسول وقف من قومه موقفاً حاسماً من أجلها حتى جاء خاتمهم رسو الله محمد ﷺ فوقف من الشرك والمشركين موقفاً حاسماً لا هوادة فيه ولا لين فقرع المشركين بالحجة وجادلهم بالبرهان وساق لهم بالبيان وحاجهم بالقرآن ، روى ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه وجاء النبى ﷺ وعند رأس أبى طالب مجلس رجل فقام أبو جهل كى يمنعه قال : وشكوه إلى أبى طالب فقال : يا ابن أخى ما تريد من قومى ؟ فقال : « **يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤوى إليهم بها الجزية العجم** » فقال : وما هى ؟ قال : « **لا إله إلا الله** » قال : فقالوا « أجعل الآلهة إلهاً واحداً » قال : فنزل فيهم القرآن ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (7) أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ (10) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾(4) .

---

(1) سورة الأنبياء (87) .
(2) سورة طه (98) .
(3) سورة مريم (36) .
(4) سورة ص .

من صور الشرك وأنواعه

هذا بيـان القـرآن عن الشـرك : عن آثاره المدمـرة وأفكاره المعـوجـة المهلكة وسنعـرض لبعض منهـا بإيجـاز : لقد بين النبى ﷺ خطورة الرياء حين يتدخل فى أعمال العبـادات ويتحسس طريقه إلى القلوب فيفسد عمل المرء ويطمس صفاء التوحيد « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » فقيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « **الرياء .. يقول الله تعالى يوم يجازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم بأعمالكم فانظروا هل تجدون عندهم جزاء** » رواه الطبرانى ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **إيــاكم وشرك السرائر** » قالوا : يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال « **يقوم الرجــل فيصلى فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه .. فذاك شرك السرائر** » رواه ابن خزيمة .

وادعاء علم الغيب وتصديقه والطيرة والعيافة والسحر والكهانة والنذر لغير الله وأكل مـا حـرم الله أكله مما لم يذكر اسم الله عليـه : كل ذلك قـرين الشـرك بالله ومدعاة إليه وهذه كلمات مضيئة وتوجيهات رشيدة من توجيهات رسول الله ﷺ : روى التـرمذى عـن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أنه سمع رجلاً يقول : لا . . والكعبة ، فقال ابن عمر : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « **من أتى عرافاً فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً** » وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال ﷺ « **من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد** » أخرجه الترمذى .

وقال تعالى : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾(1) . وقال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا** ﴾(2) .

وقال عز شأنه : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ**

(1) سورة الأنعام (59) . (2) سورة الجن (26) .

لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [1] ورد فى الصحيحين عن النبى ﷺ ما معناه : « **من كان ناذراً فلينذر لله أو ليصمت** » .

وإذا كانت هذه صور من الشرك عرفها الناس من قديم فإن العصر الحديث قد طلع علينا بصور جديدة من الشرك لا يقل ضررها عما عرفه الناس قديماً من ألوان الشرك :-

هذا شرك الذلة والمهانة والاستكانة أمام الجبروت والطغيان ، هذا شرك الخيال والوهم والغى والهوى والأنانية والأثرة ، هذا شرك خوف الإنسان من الإنسان على الرزق والحياة : وهما مضمونان عند الله بنص القرآن ، هذا شرك الضغط من الغنى على الفقير واستعلاء القوى على الضعيف .

هذه - لا شك - مظاهر تعترى النفس فى كل عصر وجيل إلا أنها فى هذا العصر استفحلت وتجسدت حتى صارت كأنها أمور مألوفة لا عيب فيها ويحسن أن ننقل هنا كلاماً طيباً لأحد كبار العلماء رحمه الله قال : فيا ويلنا وقد فشا فينا الشرك بالله واتخذنا له ألواناً وألواناً : الرياء فى عبادة الله شرك بالله ، الإعراض عن شرع الله شرك بالله ، التفريق بين جماعة الموحدين بالله شرك بالله ، موالاة أعداء الله الساعين فى أرض الله بالفساد شرك بالله ، الضَّنُّ على عباد الله بنعم الله شرك بالله ، الاعتماد على شفاعة الشفعاء فى مغفرة الذنوب دون عمل ولا رجوع إلى الله وحده شرك بالله ، الخنوع للجبارين الطغاة وإهمال أوامر الله فى مكافحتهم ورد طغيانهم شرك بالله ، نفاق الفرد للفرد ونفاق الجماعة للجماعة ونفاق الجماعة للفرد شرك بالله » وإذا كان لابد من قول نختم به هذا الفصل فهو حديث النبى ﷺ لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - : « **يا معاذ .. أتدرى ما حق الله على العباد** » ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال ﷺ : «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .. أتدرى ما حقهم عليه** » ؟ قال : الله ورسوله أعلم قال : « **ألا يعذبهم** » البخارى .

---

(1) سورة الأنعام (121) .

الفصل الثاني

ينبوع الحنان الفياض

- آيات وأحاديث
- تكريم إلهي بدون حدود
- صور هذا التكريم
- مكانة الأم وفضلها
- قالوا عن الأم
- أمهات ... ورسل
- وأيضاً ... بعد الوفاة

قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(1) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(2) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾(3) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾(4) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾(5) .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴾(6) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(7) .

---

(1) سورة لقمان (14 - 15) .
(2) سورة الأحقاف (15) .
(3) سورة الإسراء (23 - 24) .
(4) سورة البقرة (83) .
(5) سورة النساء (36) .
(6) سورة الأنعام (151) .
(7) سورة العنكبوت (8) .

وقال الله تعالى : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾[2] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[3] .

وأحاديث نبوية

نزلت هذه الآيات الكريمة من كتاب الله تتحدث عن هذا الأمر العظيم : تتحدث عن مكانة الوالدين وفضلهما على الإنسانية كلها وما يجب لهما من إكرام واحترام وتقدير .

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية يوجهها النبى الأمين ﷺ إلى الأبناء تنويهاً بشأنها وبياناً لما يجب لهما من فضل وواجبات .

عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة** » رواه مسلم .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : أقبل رجل إلى نبى الله ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد وأبتغى الأجر من الله تعالى ، قال : « **فهل لك من والديك أحد حى** » ؟ قال : نعم !! بل كلاهما قال : « **فتبتغى الأجر من الله تعالى** » ؟ قال : نعم ، قال : « **فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما** » رواه الشيخان ، وفى رواية لهما : جاء رجل فاستأذنه فى الجهاد فقال : « **أحى والداك** » ؟ قال : نعم . . قال : « **ففيهما فجاهد** » وهذا من غير شك يدل على عظم فضيلة البر بالوالدين وأنه مقدم على الجهاد إذا كان الجهاد فرض كفاية ولم يتعين أن يكون فرض عين على المسلمين كلهم حين يدخل العدو ديار الإسلام .

(1) سورة إبراهيم (41) . (2) سورة مريم (11 - 14) .
(3) سورة نوح (28) .

تكريم إلهى بدون حدود

هذا عطف الإسلام على الوالدين : إنه يرفع كثيراً من شأن الأبوين عامة والأم على وجه الخصوص فقرن شكر الله بشكرهما لجميل صنعهما وعظيم أثرهما وجمع طاعته وعبادته مع البر بهما والعطف عليهما لما قدماه من تضحيات وقد تردد ذلك فى ايات الكتاب العزيز فى نحو عشرة مواضع قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2] قال العلامة الإمام القرطبى : قال العلماء : فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان فقال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ وروى شعبة وهشيم الواسطيان عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « **رضا الرب فى رضا الوالدين وسخطه فى سخط الوالدين** » وعن عبدالله بن عباس – رضى الله عنهما – قال : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها : إحداها ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه ، الثانية : قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فمن صلى ولم يزكّ لم يقبل منه ، الثالثة﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه » وليكن معلوماً أن إحسان الولد إلى أبويه إنما هو شكر لهما على سابق إحسانهما وأنه لن يستطيع أن يرقى بإحسانه حتى يصل به إلى ما قدماه له فإن من سبق بالفضل أرقى ممن لحق به : وقال بعض الحكماء :

مـــا رضـــاء الله إلا	فى رضـــا الوالـــدين
مـــا بقـــاء الكـــون إلا	بحـــنان الأبـــوين
أبـــوا الإنســـان بعـــد اللـــه	أولـــى بالمحبـــة

---

(1) سورة البقرة (83) . (2) سورة النساء (36) .

كل من يغضب أمـــاً　　أو أباً يغضب ربـه
فأحبـــوا أبويكـــــم　　لتعيشوا سعــــداء
وابذلوا الروح فداهــم　　تجـدوا الخير جزاء

أوجب الإسلام البر بالوالدين - مهما كانوا عليه من أوضاع - غنيين أو فقيرين مؤمنين بالله أو كافرين ، بارين بالولد أو فاجرين ، محسنين إليه أو مسيئين ، طالما لم يأمراه بمعصية الله عز وجل ، روى الشيخان عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت أمي - وهى مشركة - فى عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبى ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبى ﷺ فقلت : إن أمي قدمت وهى راغبة - أى راغبة عن الإسلام - أفأصلها ؟ قال : « **نعم صلى أمك** » ، وورد فى كتب السيرة والتفسير عن سعد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - قال : كنت باراً بأمى فأسلمت فقالت : لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ويقال : يا قاتل أمه وبقيت يوماً ويوماً فقلت : يا أماه !! لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا فإن شئت فكلى وإن شئت فلا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت » وفيه نزلت ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ وفى هذا ما يدل على العناية والاحترام للوالدين .

ناهيك باحترام وإكرام يرفع الكربات وينجي من المهالك فقد ورد عن النبى ﷺ أن البر من أسباب دفع الضر وجلب الرزق والبركة فى العمر والنجاة من كل مكروه ، فعن عبدالله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . . .**

. . . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق أهلاً ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت - والقدح على يدى - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . . . .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىَّ ، وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها » وفى رواية : « فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىَّ وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال : يا عبدالله أدِّ لى أجرى ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبدالله لا تستهزئ بى ، فقلت : لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاق فلم يترك منه شيئاً اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » رواه الشيخان ، ومازال الحديث النبوى فى شأن الوالدين موصولاً تبياناً لفضلهما ، روى الطبرانى عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من بر والديه طوبى له زاد الله فى عمره » ، وروى الحاكم وابن ماجة عن ثوبان - رضي الله عنه - قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر » .

صور هذا التكريم

ويكون الإحسان بالوالدين بتعظيمهما وبرِّهما وخفض الجناح لهما كما يكون باحترامهما وتوقيرهما ولا يؤثر زوجة ولا ولداً عليهما ولا يسافر سفراً إلا برضاهما وإذنهما ، روى البخارى عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - جاء رجل إلى النبى ﷺ يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان فقال ﷺ : « **ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما** » .

وننتقل مع القرآن إلى آية أخرى هى آية سورة الإسراء وفيها يعرض الكتاب العزيز مع الأمر بالإحسان أدباً آخر : هو أن يكون الإكرام منبعثاً عن الحنان والرحمة والخلق الكريم والعاطفة الطيبة الجياشة الفياضة بمعانى النبل والأدب بعيداً عن الطمع فى ما لهما قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل : رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ .

أمر الله عز وجل عباده أمراً جازماً وألزمهم عهداً مؤكداً وأوجب عليهم توحيده وعبادته وقرن بر الوالدين بذلك كله ، ثم بين النبى الأمين ﷺ أن هذا البر من أفضل الأعمال الصالحة بعد الصلاة التى هى من دعائم الإسلام ، روى البخارى عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « **الصلاة على وقتها** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **ثم بر الوالدين** » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « **الجهاد فى سبيل الله** » كما بين عليه الصلاة والسلام أن العقوق من كبائر الذنوب ، روى الشيخان عن أبى بكرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر** » - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله قال : « **الإشراك بالله وعقوق الوالدين** » - وكان متكئاً فجلس - وقال : « **ألا قول الزور وشهادة الزور** » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » ، وروى البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس** » ، وروى الحاكم عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **أربع حق على الله ألا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن خمر وآكل الربا وآكل مال اليتيم بغير حق والعاق لوالديه** » ، وروى الإمام أحمد عن أبى

مالك القشيرى - رضي الله عنه - قال : قال النبى ﷺ : « **من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه** » .

وكذلك بين النبى ﷺ أن من أنواع البر بهما وصور الإحسان إليهما عدم إيذائهما بالفعل أو القول فلا يسبهما ولا يشتمهما ولا يتعرض لمن يفعل ذلك فى حقهما فإن فعل ذلك فقد ارتكب من الكبائر عظيماً ، فى صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « **إن من الكبائر شتم الرجل والديه** » ، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « **نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه** » وفى صحيح ابن حبان : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « **لو علم الله شيئاً أدنى من الألف لنهى عنه فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار** » .

وبقى شئ أخير فى هذا الأمر : فإن الأبوين عند الكبر يكونان فى حاجة ماسة إلى النفقة والرعاية . . والعناية بشأنهما عناية تامة فيحتاجان إلى مزيد من الإكرام لما صاروا إليه من العجز والعوز ، قال القرطبى عن هذا الأمر : قد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول إن أبى أخذ مالى ، فقال : النبى ﷺ للرجل فأتنى بأبيك فنزل جبريل عليه السلام على النبى ﷺ فقال : « **إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك : إذا جاءك الشيخ فأسأله عن شئ قاله فى نفسه ما سمعته أذناه** » ، فلما جاء الشيخ قال له النبى ﷺ : « **ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ؟** » ، فقال : سَلْه يا رسول الله : هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسى ، فقال له رسول الله ﷺ : « **إيه . . دعنا من هذا . . أخبرنا عن شئ قلته فى نفسك ما سمعته أذناك** » ، فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقيناً لقد قلت فى نفسى شيئاً ما سمعته أذناى قال : « **قل وأنا أسمع** » قال : قلت :-

غذوتك مولوداً ومُنتك يافعاً ... تُعَل بما أجنى عليك وتُنهلُ

تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن المـوت وقـت مؤجـــل
فلما بلغــت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمــل
جعلت جزائى غلظة وفظـــاظة ... كأنك أنـت المنعم المتــفـضل
فليتك إذ لـــم تـــرع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المصاقب يفعـل
فأوليتنى حق الجوار ولـم تكـن ... علـىَّ بمـال دون مالـك تبـخل

قال : فحينئذ أخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه وقال : « **أنت ومالك لأبيك** » : أنت ومالك لأبيك : كلمة حكيمة من رسول أمين ومربّ كريم يعرف فضل الوالدين ويهدى الناس إلى هذا الفضل الكبير وينعى على العقوق وأربابه وبهذا الصنع الكريم وضع الأمر فى نصابه وأرجع الحق لأصحابه وأين هذا الإكرام والاحترام والتقدير مما انحدرت إليه بعض الشعوب فى القدم فأهانت الأبوين أقبح إهانة وآذتهما أشد إيذاء !!!

فقد حدثتنا كتب التاريخ : إنه فى بعض الدول القديمة كان الأبناء يقتلون آبائهم وأمهاتهم إذا بلغوا أرذل العمر تخلصاً منهم أو إكراماً لهم ولعل فى هذا الجرم من الفظاظة ما تقشعر منه الأبدان !! ولكن اسمع ما هو أشد منه جرماً وأبلغ إثماً : كان الأبناء فى بلدة « بكتر » من بلاد اليونان يرمون بآبائهم وأمهاتهم للكلاب إذا كبروا واستمروا على ذلك حتى منعهم « الإسكندر الأكبر » .

مكانة الأم وفضلها

هذا ما يكون من عناية الإسلام بالوالدين على العموم : وإنك لواجد بعد ذلك هالة من القداسة والإعزاز ، تلك التى توج الإسلام بها الأم إكراماً لها وتنويهاً بشأنها وقياماً بحقها وجبراً لخاطرها ومراعاة لضعفها وحفاظاً على دورها فى التربية :

جعل الإسلام طاعتها وبرها مقدماً على بعض أنواع الطاعة والعبادة فللإنسان أن يقطع صلاة النفل كى يجيب أمه إذا دعته وإن لم يفعل فقد أغضبها وبهذا يكون

قد أغضب ربه ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم وصاحب جريج** » . . .

. . . وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان بها فأتته أمه وهو يصلى فقالت : يا جريج فقال : يا رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرفت أمه ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريح ، قال : أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريج فقال : أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها فقالت : إن شئتم لأفتننه ، فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغى فولدت منك فقال : أين الصبى ؟ فجاءوا به فقال : دعونى حتى أصلى ، فصلى فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب قال : لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . . .

. . . وبينما صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ثم أقبل على ثدى أمه فجعل يرضع - فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بإصبعه السبابة فى فيه فجعل يمصها - قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت وسرقت وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فهنالك تراجعا الحديث فقالت : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت وسرقت فقلت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقلت : اللهم اجعلنى مثلها قال : إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ، وإن

هـذه يقـولون لهـا : زنيت ولم تزنُ وسرقت ولم تسـرق فقلت : اللهم اجعلني مثلهـا » رواه الشيخان .

حذر الدين بهذا من إغضاب الأم وإهانتها لأن ذلك مضيع لثواب الأعمال عند الله جالب لسخط الله فى الدنيا ويورث سوء الخاتمة عند الموت ولا يرضى عاقل بأن ينهى حياته بهذه النهاية المؤسفة ، روى الذهبى فى كتابه « الكبائر » حكى أنه كان فى زمن النبى ﷺ شاب يسمى « علقمة » وكان كثير الاجتهاد فى طاعة الله فى الصلاة والصوم والصدقة فمرض واشتد مرضه فأرسلت امرأته إلى رسول الله ﷺ إن زوجى علقمة فى النزع فأردت أن أعلمك يا رسول الله بحاله فأرسل النبى ﷺ عماراً وصهيباً وبلالاً وقال : « **امضوا إليه ولقنوه الشهادة** » فمضوا إليه ودخلوا عليه فوجدوه فى النزع فجعلوا يلقنونه قول : لا إله إلا الله : ولسانه لا ينطق بها . .

فأرسلوا إلى رسـول الله ﷺ يخبرونه أنه لا ينطق لسانه بالشهادة فقال النبى ﷺ : « **هل من أبويه أحدٌ حى ؟** » قيل : يا رسول الله أم كبيرة السن ، فأرسل إليها رسـول اللـه ﷺ رسولاً وقال له : « **قل لهـا : إن قدرت على المسير إلى رسول الله - ﷺ - وإلا فقرى فى المنزل حتى يأتيك** » ، قال : فجاء إليها الرسول فأخبرها بقول رسول الله ﷺ فقالت : نفسى فداء رسول الله أنا أحق بإتيانه ، فتوكأت وقامت على عصا وأتت رسول الله ﷺ فقال : « **يا أم علقمة اصدقينى وإن كذبتنى جاء الوحى من الله تعالى . . كيف كان حال ولدك علقمة ؟** » قالت : يا رسول الله كان كثير الصلاة كثير الصيام كثير الصدقة ، فقال رسول الله ﷺ : « **فما حالك** » ؟ قالت : يا رسول الله أنا عليه ساخطة ، فقال : « **لمَ ؟** » قالت : يا رسول الله كان يؤثر علىَّ زوجته ويضيننى .

فقال رسول الله ﷺ : « **إن سخط أم علقمة حجب لسان علقمة عن الشهادة** » ثم قال : « **يا بلال انطلق واجمع حطباً كثيراً** » قالت : يا رسول الله وما نصنع به ؟ فقال : « **أحرقه بالنار بين يديك** ، قالت : يا رسول الله ! ! ولدى لا يحتمل قلبى أن تحرقه بالنار بين يدى » فقال : « **يا أم علقمة عذاب الله أشد وأبقى فإن سرك أن يغفر الله له**

فارضى عنه فوالذى نفسى بيده لا ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته ما دمت عليه ساخطة » ، فقالت : يا رسول الله إنى أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضرنى من المسلمين أنى قد رضيت عن ولدى علقمة . . . فقال رسول الله ﷺ : « **انطلق يا بلال وانظر هل يستطيع أن يقول : لا إله إلا الله أم لا ؟ فلعل أم علقمة تكلمت بما ليس فى قلبها حياء منى** » .

فانطلق بلال فسمع علقمة من داخل الدار يقول : لا إله إلا الله ، فدخل بلال وقال يا هؤلاء إن سخط أم علقمة حجب لسانه عن الشهادة وإن رضاها أطلق لسانه .

ثم مات علقمة من يومه فحضره رسول الله ﷺ فأمر بغسله وكفنه ثم صلى عليه وحضر دفنه ثم قام على شفير قبره وقال : « **يا معشر المهاجرين والأنصار من فضل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً إلا أن يتوب إلى الله عز وجل ويحسن إليها ويطلب رضاها فرضا الله من رضاها وسخط الله من سخطها** » .

من أجل ذلك جعل الدين لها ثلاثة أرباع البر والطاعة وللأب ربع واحد لأنها حقل الإنبات الإنسانى وموئل الفيض الربانى والمدرسة التى يتربى فيها الطفل فيأخذ من روحها وحنانها فكانت - وما زالت - مهد الطفولة الناشئة والرائد الأول لهؤلاء الصغار والحارس الأمين على أمور التربية والتأديب وإهمالها أو التقصير فى شأنها يضيع معه جهود المربين والمعلمين والأدباء والمصلحين ، إن عمل الأم الجميل ودورها الأصيل يبدأ حين يصير الإنسان جنيناً فى بطنها ثم يولد طفلاً صغيراً لا يعرف شيئاً من أمور الحياة ثم صار فتى يافعاً وهى فى كل هذه الأطوار تلازمه بحنانها وتعطف عليه بقلبها وتلاطفه بفؤادها ولا يفارقه قلبها حيثما حلَّ وأينما سار قال تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ .

وروى البخارى أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق

الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « **أمك** » ، قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » ، قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » ، قال : ثم من ؟ قال : « **أبوك** » .

ثلاث أرباع البر جعلت للأم وحدها فكانت لفتة جميلة من الحديث انتظمت مع الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ حملته أمه كرهاً : هذه واحدة ، ووضعته كرهاً : هذه ثانية ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً : هذه ثالثة - ثلاثة أعمال شاقة وكريمة فى وقت واحد وكان لكل واحد منها ربع البر والإحسان .

ومن هنا كانت أحق بأن تكون المهد الأمين الحنون للطفولة دون الأب ، وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء وحجرى له حواء وثديى له سقاء وإن أباه طلقنى وزعم أنه ينزعه منى فقال ﷺ : « **أنت أحق به ما لم تنكحى** » .

قالوا عن الأم

ومازال الكلام عن الأم نبعاً فياضاً من الأدب البليغ والحكمة العالية والمعرفة الصادقة والاعتراف النبيل بدورها الكبير وبيان أثرها العظيم .

وهذه كلمات مضيئة عن فضلها ومكانتها تحدث بها الحكماء والأدباء - وهو شئ كثير - فوضعوها فى درجة عالية مرموقة :-

يقول النبى ﷺ : « **إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنعا وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل ، وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال** » وقال عليه الصلاة والسلام « **الجنة تحت أقدام الأمهات** » .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : إنى أخدم أمى كما كانت تخدمنى فى الصغر فهل قمت بحقها ، فقال : لا !! فقال الرجل : ولم ؟ قال « إنها كانت تخدمك وهى تتمنى لك الحياة وأنت تخدمها وأنت تتمنى لها الموت » .

ورأى عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - رجلاً يحمل أمه على رقبته وهو يطوف بها حول الكعبة فقال الرجل : « يا ابن عمر !! أترانى جازيتها ؟ قال : « ولا بطلقة واحدة من طلقاتها ولكن قد أحسنت إليها والله يثيبك على القليل كثيراً » .

وبلغ من احترام الإمام علىّ زين العابدين لأمه أنه كان لا يأكل معها من إناء واحد !! فسئل فى ذلك : لم لا تأكل مع أمك ؟ فقال : « أخشى أن تسبق يدى يدها إلى شئ تريده فأكون قد عصيتها فأدخل النار » .

وقال حكيم : « الأم هى كل شىء فى الحياة : هى التعزية فى الحزن ، والرجاء فى اليأس ، والقوة فى الضعف : هى ينبوع الحنان والرأفة ، ومصدر المحبة والتضحية » .

وقال العلامة (نيتشه) : « الأم هى صورة التضحية المجسمة التى لا تعرف الأنانية ولا تريد جزاء » .

وقال الفيلسوف (برناردشو) : « الأم هى المخلوق الوحيد الذى لا يعرف الحقد بالنسبة لأولاده مهما بدر منهم » .

وقال (جون ريسلى) : « كانت أمى ولا زالت هى المنبع الذى أستمد منه أسمى مبادئ حياتى » .

وأنا قلت يوم وفاتها : « **الأم هى الحبيب الوحيد والحنان الذى لا ينتهى ، عاشت بهذا الحب وماتت عليه وبدفنها لم يعد لى حنان وحب مثلها** » المؤلف .

أمهات ... ورسل

ولقد قامت الأم بدور كبير عبر السنين والأجيال - وما زالت تفعل - وفى كل الأزمان قامت بدورها خير قيام : فى كل ناحية من نواحى الحياة حتى الأديان السماوية والرسالات كان لها - أيضاً - تضحيات فى سبيلها : وهؤلاء أمهات أربع لرسل أربعة كان لهن فضل كبير فى حياة أبنائهن الرسل .

هذا إسماعيل - عليه السلام - لما ولدته أمه « هاجر » لم تستطع « سارة » صبراً على وجودها معها فى بيتها بسبب ما اعتراها من الغيرة فكان الأمر الإلهى « لإبراهيم » بترحيل هذه الأسرة إلى مكان آخر وهناك فى المكان القفر الموحش الذى ليس به أحد من الناس حيث تقوم الكعبة الآن : فى هذا المكان ترك الخليل « إبراهيم » ولده الصغير فى حضانة أمه .

ورد فى الصحيح : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : جاء إبراهيم عليه السلام بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شئ ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت !!

فانطلق إبراهيم ﷺ حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل - عليه السلام - وتشرب من ذلك الماء : حتى إذا ما نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم ترَ أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ؟ فلم ترَ أحداً ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال النبى ﷺ : **« فذلك سعى الناس بينهما »** .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . . وجعلت تغرف الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف - وفى رواية (بقدر ما تغرف) - .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال النبى ﷺ : « **رحم الله أم إسماعيل !! لو تركت زمزم** - أو قال - **لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً** » .

قال : **فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله . .**» رواه البخارى .

وهذا رسول آخر من رسل الله الكرام ، موسى - عليه السلام - لا يتحدث القرآن عن أبيه بشئ وإنما يتوجه بالحديث إلى أمه فيقول الله تعالى : ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ ألهمها الله عز وجل أن تطرحه فى نهر النيل بعد أن تجعله فى صندوق محكم أمين وسيكون بعد ذلك فى أمان من الله ورعاية وسيرده إليك ويجعله رسولاً من الرسل الكرام وكانت عناية الله به حاضرة : هذه أخته تتبع أثره كى تعلم خبره كما قالت أمها ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ**﴾ قال السدى : فدلتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها والصبى على يد فرعون يُدَلِّلُه شفقة عليه وهو يبكى ويطلب الرضاع فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها فقال فرعون : من أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك ؟ فقالت : إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أوتى بصبى إلا قبلنى ، فدفعه إليها فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق من أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر » وبذلك نشأ موسى فى حجر أمه فتدور مدة طفولته عليها ، فهى التى تقوم بعملية الإلقاء فى اليم وهى التى أرضعته وحضنت وهى التى تتلقى إلهام الله وهداه .

وهذا رسول ثالث لم يكن له أب وإنما تعلقت قدرة الله بوجوده فتلده أم دون أن يمسها بشر ذلكم « هو عيسى بن مريم » قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... ﴾ نسب إلى أمه لأنه لم يكن له أب .

وهذا خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ : مات أبوه « عبدالله بن عبدالمطلب » قبل أن يولد فلم يرَ أباه ويعيش فى حضانة « آمنة بنت وهب» فترعاه أحسن الرعاية حتى بلغ السادسة من عمره أو كاد فترحل عن الدنيا وتتركه وحيداً إلا من عناية الله عز وجل فأحس بمرارة الثكل ومرارة الحرمان وتظل الذكريات الأليمة تعاوده حتى بعد أن اختاره الله لتبليغ رسالته وهداية خلقه ، روى عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم فبكيت لبكائه ﷺ ، وروى الإمام أحمد ومسلم أن رسول الله ﷺ زار قبر أمه بالأبواء فبكى وأبكى من حوله فقال النبى ﷺ « **استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروها فإنها تذكر الموت** » .

هذا ما جاء به الإسلام والتاريخ من رعاية لمنزلة الأم جزاء ما قامت به من تضحيات وكفاء ما قدمته للإنسانية من جليل الخدمات فإذا جاء الناس فى هذا العصر ورأوا أن يكرموها واحتفلوا بهذا التكريم فى يوم عيد لها كان ذلك تذكير للتشبيه بما لها من فضل على الأمة ووضعاً للأمر فى نصابه بعد أن رأينا الإسلام يرتفع بشأنها ويسمو بدرجاتها ويحلق بها فى مستوى رفيع من الفضل السابغ والدرجة العالية .

وأيضاً ... بعد الوفاة

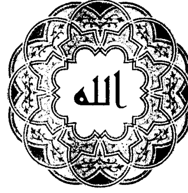
هذا . . ونحب فى هذه الكلمة الأخيرة : أن نوجه النظر إلى أمرمهم وهو ما يتبادر إلى الذهن أن بر الوالدين مجاله الحياة الدنيا فإذا ما انتهت حياتهما فى الدنيا فقد تحلل الشخص من هذا الواجب وذلك خطأ مبين فإن بر الوالدين على خلاف ذلك : إنه يمتد إلى ما بعد الوفاة ، واستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يبين هذا المعنى فى حديث من أحاديثه فيقول : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » .

إن الابن الصالح ثمرة طيبة لوالديه يحفظهما فى حياتهما ويحسن إليهما بعد موتهما : فيذكرهما بالخير ويثنى عليهما ويدعو لهما بالمغفرة والرضوان ويحب على حبهما ويكره على كرههما ويصاحب من كان أيضاً يحبانه ويكرم من كانا يكرمانه ولا يفعل شيئاً يجلب السب لهما ، روى مسلم عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إذا مَلّ ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه فبينما هو يوماً على ذلك الحمار مر به أعرابى فقال : ألست فلان بن فلان ؟ قال : بلى ، فأعطاه الحمار فقال : اركب هذا ، وأعطاه العمامة وقال : اشدد بها رأسك ، فقال له بعض أصحابه : غفر الله لك ، أعطيت هذا الأعرابى حماراً كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك ، فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى** » وإن أباه كان صديقاً لعمر - رضي الله عنه - » وعن أبى أسَيْد مالك بن ربيعة الساعدى - رضي الله عنه - قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شئ أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : « **نعم ! الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما** » رواه أبو داود ، وقال الإمام القصار يوصى :-

زُر والديك وقف على قبريهما ... فكأننى بك قد نقلت إليهما
لو كنت هما وكانا بالبقا ... زاراك حبواً لا على قدميهما
أنسيت عهدهما عشية أسكنا ... دار البلى وسكنت فى داريهما

مـا كــان ذنبـهما إليــك وإنمــا	منحاك محض الود من نفسيهما
كانا إذا مـا أبصــرا بــك عــلة	جزعا لما تشكو وشق عليهــما
كانا إذا سمعا أنينـك أســبلا	دمعيهما أسفاً على خديهما
فلتلحقنهما غــداً أو بعــــده	حتماً كما لحقا هُما أبويهــما
ولتندمن على فعالك مثلـــما	ندما هما أيضاً على فعليهــما
بشراك إن قدمت فعلاً صالحـــاً	وقضيت بعض الحق من حقيــهما
وقرأت من آى الكتاب بقدر مـــا	تستطيعه وبعثت ذاك إليهــما
فاحفظ بنى وصيتى واعمل بهــا	فعسى تنال الفوز من بريهما

وأخيراً!!! فإن ما جاء به الإسلام من إكرام الوالدين فى حياتهما أولاً ، وبعد مماتهما ثانياً ، كان فريداً فى هذه الناحية مما جعل منه رسالة سامية فى إصلاحها عميقة فى هدايتها شاملة فى نظرتها للحياة والناس ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .





الفصل الثالث

عماد ظهورنا وبهجة حياتنا

- الله هو الرزاق
- الإنقاذ الربانى
- رحمة الإسلام وحفظه
- خطوات للتربية والإعداد

عماد ظهورنا وزينة حياتنا

﴿ ... وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴾ الأنعام : 151 .

﴿ ... وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ... ﴾ الإسراء : 31 .

كما أعلنا من قبل عن الخطة التى اتخذها الكتاب لنفسه فى هذه الوصايا نحب أن نقول : إننا سنعيش مع هذه الوصية فى جو روحى عام - وكذلك نرجو أن نكون - تاركين الأحكام الفرعية المتعلقة بالأولاد - رضعاً وأطفالاً وشباباً - لأننا درسنا الموضوع من قبل فى أحد كتبنا . . .

والآن . . مع هذه الوصية الغالية التى تنبض بحرارة العاطفة وتفيض بصدق الحنو والشفقة على هؤلاء البراعم التى سوف تحمل عنا أشواقنا ومواريثنا إلى من بعدنا ومن أجل ذلك كان حرص الدين على تربيتهم كبيراً وحدبه عليهم عظيماً فكانوا - ومازالوا وسيكونون - المعابر القوية والأصول الثابتة والأوعية الحافظة التى تنتقل عليها البشرية من أجل إعمار الحياة وإثرائها وإمدادها بمتطلبات العيش المستقر ، وإذا كانت البشرية فى فترة من عصورها قد التوت بها سبل الحياة فانطفأت فى قلبها مشاعل الرحمة والفهم المستنير وأظلمت فى نفسها معانى السمو والشفقة فقتلت الأبناء مخافة الفقر ووأدت البنات خشية العار والسبى تارة أو باعتهم فأسلمتهم إلى ذل العبودية الأبدية هم وأبناءهم من بعدهم تارة أخرى فإن ذلك كان شذوذاً خرجت به البشرية عن دائرة العقل السليم وعاطفة الأبوة الرحيمة وخسرت بسببه كثيراً من النعم التى تكون بوجود الأولاد من الزينة والسرور والصلة والبر والمعونة وامتداد الحياة هذا الأمر الذى عبر عنه القرآن بقول الله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1] .

---

(1) سورة الأنعام (140) .

الله هو الرزاق

خسر هؤلاء السفاء وخابوا حين قتلوا الأولاد بهجة الحياة وزينتها ، قال صاحب الكشاف : نزلت فى ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبى والفقر ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] وكانت الموءودة هى البنت التى تدفن حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب الذى يؤودها أى يثقلها حتى تموت ومن هذا المعنى قول متمم بن نويرة :

وموءودة مقبورة فى مفازة بآمتها موسودة لم تمهد

يتحدث عن البنت وئدت على الحال التى ولدت عليها حتى حبل السرة وما يعلق بها - الآمة - وقال عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - « كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة وتمخضت على رأسها فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفرة وردت التراب عليها وإن ولدت غلاماً حبسته» وهذا بيت من الشعر يصور هذه المأساة :

سميتها إذا ولدت تموت والقبر صهر ضامن زِمّيت

يقول : إن البنت ولدت لتموت فالقبر أولى بها وهو نعم الصهر ضامن زميت - وقور ثابت يحفظ ما فيه - كان الخوف من الفقر هو الدافع إلى ارتكاب هذا الجرم الخطير الذى تورطت فيه البشرية من قتل الأولاد أو بيعهم حتى صار أمراً مألوفاً عند كثير من الأمم القديمة : عرف عند اليونان والرومان والمصريين وبقى عند بعض شعوب أوروبا حتى نهاية العصور الوسطى وظل موجوداً فى (انجلترا) إلى نهاية القرن الثانى عشر واستمر موجوداً فى فرنسا إلى القرن الخامس عشر وكان موجوداً عند قبائل التتار وفى الجماعات الفقيرة فى قارتى آسيا وأفريقيا وكانت البنات تباع لبيوت الدعارة كما حدث فى اليابان إلى أن منع بقانون صدر فى عام ألف وتسعمائة : « قصة الحضارة ج 5 » ولا تعجب من وقوع هذه الشعوب القديمة فى هذا الجرم الشائن فإن أتباع الشريعة اليهودية قد وقعوا فيه وأقرت الشريعة هذا البيع ، سفر اللاويين : 35: 47-50 .

---

(1) سورة التكوير (8) .

وجاء عرب الجاهلية فأكملوا الجرم وأضافوا إلى البيع القتل للأولاد والوأد للبنات خشية من عار التزوج بزوج دون أبيها فى المكانة والشرف أو عار الفاحشة أو السبى فى القتال قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1] .

وقد تولى كبر هذا الإثم فى الجاهلية - دفن البنات بالحياة كراهة فيهن - « قيس ابن عاصم التميمى » وكان قد أغار عليه بعض أعدائه فأسر بنته فاتخذها لنفسه وبعد أن تم الصلح بينهم خيرت البنت بين الرجوع إلى أهلها أو البقاء مع زوجها فاختارت زوجها فآلى قيس على نفسه ألا تولد له بنت إلا ودفنها فتبعه العرب فى ذلك ، وكان من العرب فريق آخر يقتلون أولادهم مطلقاً إما نفاسة منه على ما ينقصه من مال فى الإنفاق عليهم .

ولا يتبادر إلى الذهن أن هذا الأمر قد وجد رضا من الجميع فقد وجد من العرب زعماء عقلاء أنكروه وقاموا يدعون الناس إلى تركه وقدموا فى ذلك الأموال الكثيرة يشترون بها البنات ونذكر منهم على سبيل المثال : (زيد بن نفيل القرشى) والد سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة - رضي الله عنه - ، و(صعصعة بن ناجية التميمى) الصحابى - جد الفرزدق الشاعر المشهور - الذى أبلى البلاء الحسن فى هذا الأمر فقد قال عن نفسه : - رواية كتاب الأغانى - « جاء الإسلام وقد فديت ثلاثمائة موءودة » فكانت مكرمة له ذهب بها على الدهر وجعلت الفرزدق يفتخر به ويقول :

ومنا الذى منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم يوأد

الإنقاذ الربانى

وجاء الإسلام فجاء معه الإنقاذ الربانى وكان ذلك بإبطال سببه الذى دفع إليه وهو : الفقر فنهى عن قتل الأولاد حالاً ومستقبلاً فإن الله الذى خلقهم قد ضمن الرزق لهم فى الحالتين : حالة ما إذا كان الفقر حاصلا بالفعل ووقع فيه الأب وذلك قوله تعالى ﴿ ... وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴾ وحالة ما إذا

(1) سورة الأنعام (137) .

كان الأب يتوقع الفقر مستقبلاً وذلك قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾ وهذا من لطائف التعبير القرآنى الكريم ، فى الحالة الأولى بيان أن رزقكم مضمون وحاصل ورزقهم معكم ، وفى الحالة الثانية رزقهم مضمون ورزقكم معهم : سترزقون بسببهم : فلا خوف إذن من الحاضر ولا من المستقبل ، وجاءت الأحاديث الشريفة وتوجيهات رسول الله ﷺ تؤصل هذه المعانى فى النفوس ، روى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة** » ، وعن كعب بن عجرد - رضي الله عنه - قال : مر على النبى ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا : يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **إن كان خرج يسعى على ولدة صغاراً فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان** » رواه الطبرانى ، وروى الشيخان والترمذى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : دخلت علىَّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندى شيئاً غير تمرة واحدة فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً ثم قامت فخرجت ودخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال : « **من ابتلى من هذه البنات بشئ فأحسن إليهن كُنَّ له ستراً من النار** » وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده** - يعنى الذكور - **عليها أدخله الله الجنة** » رواه أبو داود والحاكم ، وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن** » ، فقال رجل : واثنتان يا رسول الله قال : « **واثنتان** » ، قال رجل : يا رسول الله وواحدة ، قال : « **وواحدة** » رواه الحاكم وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبى وائل عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها**

وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له ستراً أو حجاباً من النار » وعن أبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة** » رواه الترمذى .

هذه مجموعة من الأحاديث تبين فضل تربية البنات والحفاظ عليهن وإكرامهن والصبر على أذاهن وقد انفعلت نفوس الصحابة - رضى الله عنهم - بهذه التوجيهات النبوية الحانية وندم كلٌ من فعل هذا الجرم مع بناته فى الجاهلية فكان يتضرع إلى الله أن يغفر له هذا الذنب ، ومع أن الإسلام يقطع ما قبله إلا أن نوبات الندم تراوده وتلاحقه ، روى أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « **مالك تكون محزوناً** » ؟ فقال : يا رسول الله إنى أذنبت ذنباً فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لى وإن أسلمت فقال له : « **أخبرنى عن ذنبك** » ؟ فقال : يا رسول الله إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لى بنت فتشفعت لى امرأتى أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلتنى الحمية ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج فقلت للمرأة إنى : أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقاربى فابعثيها معى فسُرَّت بذلك وزينتها بالثياب والحلى وأخذت علىَّ المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت فى البئر ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر فالتزمتنى وجعلت تبكى وجعلت تقول : يا أبت أى شئ تريد أن تفعل بى فرحمتها ثم نظرت فى البئر فدخلت علىَّ الحمية ثم التزمتنى وجعلت تقول : يا أبت لا تضيع أمانة أمى فجعلت مرة أنظر فى البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسة وهى تنادى فى البئر : يا أبت قتلتنى فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت ، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : « **لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك** » القرطبى .

رحمة الإسلام وحفظه

وجاء الإسلام فانتقل بهذه الأمة الجاهلية نقلة كبيرة واسعة وطفر بهم طفرة عالية فبعد أن كانت البنات عاراً يلاحقهم صاروا يكنون بهن ولا يجدون فى ذلك حرجاً أو ضيقاً ولا عيباً أو أذى وربما رضى بالبنت - واحدة - قسماً وحظاً من الذرية ، فأبو أمامة صدى بن عجلان الباهلى ، وأبو أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى ، وأبو رقية تميم بن أوس الدارى ، من هؤلاء وكان من أثر وثبة الإسلام بالناس أن أصبح الكلام عن البنين والبنات يحتل مكاناً كبيراً من فكرهم وفقههم أخذاً من آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبى ﷺ فأحكام الزواج والحمل والحفاظ على هذا الجنين فى بطن أمه حتى لا ينتقض أحد عليه بالإسقاط والإجهاض : تخلق أم لم يتخلق ، وجدت به حركة وحياة وحسّ ونشاط - وهى الحياة التى عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ وعبر عنها الحديث الشريف بنفخ الروح « **ثم ينفخ فيه الروح** » - أم لم توجد به هذه الأمارات لأن فيه حياة النمو قبل الحس والحركة وهذا هو ما عرفه الفقهاء فلم يغب عنهم أن فى مادة « التلقيح » حياة محترمة لا يجوز الاعتداء عليها فلا فرق إذن بين قتل الجنين بعد نفخ الروح فيه وصار له حس وحركة فى بطن أمه وبين تفريغه وإزالته من الرحم فى الشهور الأولى من حيث أن به حياة النمو وقابلية الحياة، كل ذلك فى الجرم سواء .

هذا من حيث الحفاظ على الحمل ومن حيث الولادة فقد وجبت المحافظة على المولود من القتل والوأد فلا يعتدى عليه لأن الاعتداء عليه جناية على كل شخص كملت حياته واستقل بنفسه فأصبح له ما للكبير من احترام ومراعاة لواجباته التى جعلها الشارع الحكيم ، وعلى هذا لا يجوز لمسلم يؤمن بالله رباً ويعرف نعمة الحياة التى تفضل بها الله عز وجل أن ينقض بوحشية وجبروت عليها فيسلبها بوسيلة من الوسائل الشيطانية التى طلع بها علينا العلم الحديث .

وبقى من هذه الأحكام ما يتعلق بالرضاع والنفقة والتعليم والتربية ، وكل ذلك

مبسوط ومدون بفقه وعلم لا نجد له نظير عند أمة من الأمم .

كان من أثر هذه الوثيقة التى صنعها الإسلام من أجل الأولاد : أن أصبحوا زينة الحياة - بنون وبنات - وصار الكدح من أجلهم والسعى عليهم سهلاً محبباً إلى النفس مهما كلف من مشقة وتعب ويحظى بثواب من الله وأجر ، عن ثوبان - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ : « **أفضل دينار ينفقه الرجل ، ينفقه على عياله ودينار ينفقه على فرسه فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله** » قال أبو قلابة : بدأ بالعيال ، ثم قال أبو قلابة : أى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عياله صغار يعفهم الله به أو ينفعهم الله به ويغنيهم » رواه مسلم والترمذى ، وحذر النبى - عليه الصلاة والسلام - من التراخى فى هذا الواجب العظيم ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت** » رواه أبو داود والنسائى وفى رواية : « **من يعول** » .

وكان من أثر هذه الوثيقة : أن صار الأولاد بهجة النفس ومهوى الفؤاد يرى الإنسان فيهم نفسه وحياته ، دخل الأحنف بن قيس على معاذ بن أبى سفيان ، فقال له : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين . . ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة وبهم نصول على كل جليلة فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم ويحبوك مهدهم ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيكرهوا قربك ويملوا حياتك ويودوا وفاتك » ويقول حطان بن المعلى فى شأن الولد :-

أنزلنى الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ إلى خفض
وغالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مال سوى عرضى
ولولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعضٍ إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض

وإنمـــا أولادنــــا بينـــنا أكبادنا تمشى على الأرض

لوهبت الريح على بعضهـــم لامتنعت عينى من الغمض

خطوات للتربية والإعداد

وبعد أن وصل العطف على الأولاد إلى هذا الحد فقد استدعى الأمر أن نبين - بإيجاز - مدى عناية الإسلام بهم حتى يصل بهم إلى المستوى المنشود من الرجولة النافعة للأمة ونستطيع أن نجمل هذا الأمر الخطير فى العناية بالأولاد فى ثلاثة أمور أساسية :-

الأمر الأول : حث الإسلام على تربية الأولاد وتنمية مداركهم علمياً وعقلياً لأن العلم والعلماء في منزلة سامية لا تعدلها منزلة أخرى فلم يقرنهم بغيرهم من الناس قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[1] وارتقى القرآن بالعلماء درجة عالية فى الفضل والشرف وذلك قوله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾[2] والعلماء أشد الناس إدراكاً وأقواهم عقلاً وأعمقهم فهماً لمشكلات هذه الحياة وأسرارها قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾[3] وكان أول ما نزل من آيات القرآن أمرا بالقراءة التى يبتدئ بها الصغار حياتهم العلمية قال تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[4] وبلغ من اهتمام الرسول بهذا الأمر أنه جعل فداء الأسير فى غزوة بدر أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة واهتم بهذا الأمر - أيضاً - المصلحون والخلفاء ، قال عبدالملك بن مروان : « يا بنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطاً سدتم وإن كنتم سوقة عشتم » وهكذا كان اهتمام المربين بهذا الأمر كبيراً فى كل عصر من العصور وذلك ما نشاهده فى هذه الثروة الفكرية التى تركها لنا العلماء من أمثال الغزالى فى « الإحياء » ، والماوردى

(1) سورة الزمر (9) .
(2) سورة المجادلة (11) .
(3) سورة العنكبوت (43) .
(4) سورة العلق .

فى « أدب الدنيا والدين » .

الأمر الثانى : اهتم الدين الحنيف بتربية أجسام الأولاد عن طريق الرياضة بأنواعها المختلفة من وثب ورمى وتحديد أهداف وذلك حتى يحموا ذمار أمتهم ويكونوا عدة لأوطانهم ولا يفروا عند الصدمة الأولى أمام أعدائهم وقد أخذ هذا الأمر من اهتمام الإسلام شيئاً كثيراً ، قال الله تعالى : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ وسمح الرسول لناس من الحبشة وشاهدهم فى المسجد وهم يتبارزون كأنهم فى مشروع مناورة كما هو وارد فى الصحيح ، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : « علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً » وإن الأمة الإسلامية محتاجة إلى هذا الأمر كى تنشئ جيلا من أبنائها يستطيع أن يتعامل مع أعدائها الذين استهانوا بشأنها ويفرض إرادة أمته على هؤلاء الأعداء .

الأمر الثالث : اهتم الإسلام بهؤلاء الأولاد من الناحية الخلقية والدينية وإن كان هذا هو المقصود الأول من التربية الإسلامية بل المقصود الأول من الرسالات عامة لأن به تخليص النفوس من ضلالات الوهم والخيال والشرك والجهل ، قال - عليه الصلاة والسلام - : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » .

والإسلام فى غرس هذه الأمور فى نفوس الناشئة لا يعتمد على القوانين الصارمة والشدة المطلقة ولكن بالمزاولة الحسنة والقدوة الطيبة حتى يشبوا على حب الفضيلة والتخلق بالأخلاق الحسنة .

هذه هى عناية الإسلام بالطفولة وهى - كما رأينا - عناية تهتم بهم اهتماماً كبيراً ، فأين هذا مما انحدرت إليه البشرية بأبخس الأثمان تخلصاً من نعمة غالية كنعمة البنات والبنين ؟! .





الفصل الرابع

- الوقاية خير من العلاج
- ومنهج للعلاج ... !

تطهير النفس والمجتمع

﴿... وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ...﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾

في كتاب « مختار الصحاح « قَرُب قُرباً بضم القاف : أى « دنا » و « قَربه بالكسر قرباناً بكسر القاف : أى « دنا منه » وبذلك يكون معنى قربته قرباناً دنوتَ مَنه ، وفيه أيضاً - مختار الصحاح - كل شئ جاوز حده فهو فاحش وقد فَحُش الأمر بالضم فُحشا وتفاحش . . . » .

ونحن الآن : نجد أنفسنا أمام نهى حاسم عن شئ له مقدمات تسلم إليه وصور تدل عليه فكان النهى عن الاقتراب من هذه المقدمات لأنها تفضى إلى المحظور لا محالة ونجد من هذا النوع من النهى فى هذه الآيات ، الآية الأولى ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ...** ﴾ والآية الثانية ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ...** ﴾ والآية الخاصة باليتيم ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ...** ﴾ وغيرها من آيات القرآن ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ...** ﴾[1] و ﴿ **لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ...** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ...** ﴾[3] نهى عن القربان الموصل إلى المعصية الكبيرة .

والقول الكريم : « ولا تقربوا » آكد - لا شك - وأبلغ فى الدلالة من « ولا تفعلوا الفواحش » . . « ولا تزنوا » . . « ولا تأكلوا مال اليتيم » لما يحمل من تحذير حاسم من الاقتراب من منطقة هى فى الأمور الحسية منطقة خطر مواد مشتعلة « ممنوع الاقتراب » ودليل ذلك ما ورد فى الصحيح عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : « **كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق كل ذلك الفرج أو يكذبه** » الشيخان .

(1) سورة البقرة (35) . (2) سورة النساء (13) .
(3) سورة البقرة (222) .

الوقاية خير من العلاج

وقد ترددت هذه الكلمة « فاحشة وفحشاء وفواحش » فى كثير من آيات الكتاب العزيز تنبيهاً على خطرها وضررها فى النفس والمجتمع وبياناً لما يجب على الإنسان أن يفعله حتى ينجو من شرها ويطهر نفسه من رجسها وبذلك يستقيم أمر الأفراد وينظف المجتمع من هذه الأمور المهلكة قال تعالى : ﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ... ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[3] وقال عز شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... ﴾[6] .

وهذه الآفة الكريهة – الفواحش – التى نهى ربنا سبحانه وتعالى عن الاقتراب منها من أسبابها التى توصل إليها جريمة عامة تطلق على كل جرم تتقزز منه الطباع السليمة وتنفر منه النفوس السوية استقذاراً لشأنه واستفظاعاً لشره لما عرف من ضررة الذى يعود على النفس بالقبح والإثم ويشيع فى المجتمع الفوضى والفساد كالزنا وغيره فكل ما من شأنه أن ينزل بالنفس الطيبة والفطرة الصافية من مستواها الرشيد فهو فاحشة زنا أو سرقة أو قتلاً لأحد من الناس أو قذفاً فى عرضه وإن كانت القرائن فى كثير من الآيات تدل على أن المراد من الآية الكريمة جريمة الزنا لما فيه من بشاعة الاعتداء على العرض والشرف واختلاط الأنساب وضياع الحقوق والأموال .

ولما كان الزنا من أكبر الكبائر لما فيه من الاعتداء على أعراض الناس وشرفهم

---

(1) سورة النساء (22) .
(2) سورة آل عمران (135) .
(3) سورة الأعراف (33) .
(4) سورة الشورى (37) .
(5) سورة الأعراف (28) .
(6) سورة العنكبوت (28) .

وتمريغ سمعتهم فى الوحل فسوف نخصه بكلمة تبييناً لخطره وتحذيراً من شره لما فيه من فحش وقذارة ووساخة وحسبه من قبح أنه لم يحل فى ملة قط بل أطبقت على تحريمه كل الأديان روى الشيخان عن أبى هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** » .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن رسول الله ﷺ قال : « **إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله** » رواه الحاكم ، وعن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أى أبواب الجنة شاءت** » رواه ابن حبان ، وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : « **اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا ائتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم** » رواه أحمد ، وعن بريدة -رضي الله عنه- عن النبى ﷺ قال : « **ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولاظهرت الفاحشة فى قوم إلا سلط الله عليهم الموت ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر** » رواه الحاكم ، وعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « **من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه تضمنت له الجنة** » رواه البخارى .

ومنهج للعلاج ...!

عالج الدين هذه الجريمة المنكرة بالعلاج الناجح وقاية من الوقوع فيه فقطع كل سبب يوصل إليه وسد كل نافذة تطل عليه : فحرم المرأة أن تسافر وحدها من غير محرم يحرسها ويحميها ويغار عليها ويدافع عنها وكان ذلك العمل علامة الإيمان الكامل واليقين الصادق منعاً للشبهات وقتلاً لنزعات الشيطان ، عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم** » رواه الشيخان .

كذلك حرم على الرجال خلوتهم بالنساء وحرم على النساء خلوتهن بالرجال حتى لا يجلس الشيطان بوساوسه وإغرائه وتزيينه ونزعاته وذلك أطهر للنفس والقلب ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم** » رواه البخارى ومسلم ، **وفى رواية أخرى عنه أيضاً** : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرم** » رواه الطبرانى ، وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : - يعنى عن ربه عز وجل : « **النظرة سهم من سهام إبليس من تركها مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه** » رواه الطبرانى والحاكم .

كذلك حرم الدين التبرج بالزينة بأن تتكشف المرأة وتظهر أمام الناس وتتعرض بهذه الزينة لينظروا إليها فإن ذلك من أسوأ الأمور والأسباب إثارة للغرائز والشهوات ، فى الصحيح عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا** » .

كذلك حرم أن تمشى المرأة فى الطرقات وتغشى المجتمعات بوضع يغرى مرضى القلوب بتتبعها والسؤال عنها ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ** ﴾ (1) وقال النبى ﷺ : « **كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا** - يعنى زانية - » أخرجه الترمذى ، وروى عن حمزة بن أبى أسيد الأنصارى عن أبيه أنه سمع النبى ﷺ وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق فقال النبى ﷺ للنساء : « **استأخرن فإنه ليس لكن أن تحتضن الطريق ، عليكن بحافات الطريق** » فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها يتعلق بالجدار من لصوقها به ، أخرجه الترمذى .

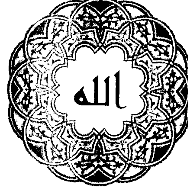
---

(1) سورة النور (31) .

كذلك أوجب الاستئذان عند دخول البيوت حفظاً للحرمات ومنعاً من الاطلاع على العورات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[1] .

هذه هى أمور خمسة تكون منهجاً وقائياً يمنع وقوع هذا الإثم الشائن ، وإذا حدثت - رغم هذا كله - تلك الجريمة الشنيعة فإن العقاب الشديد على رءوس الأشهاد بلا رحمة ولا هوادة ولا لين وما نزله الله فى كتابه ووضحته السنة المطهرة من الجلد والنفى لغير المتزوج والرجم حتى الموت لمن تزوج قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو بهذا قد انتفى عنه أنه من أسرة الإنسانية السوية المؤمنة الصادقة ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

بهذا المنهج الذى رسمناه على عجل ، نستطيع أن نضيق منافذ هذه الجريمة النكراء ونقضى على هذا الداء ويعيش الناس حياة الطهر والنقاء .



(1) سورة النور (28) .
(2) سورة النور (2) .



الفصل الخامس

خليفة الله على الأرض

- لم تحل فى دين ولا جماعة
- تحريم القتل بالشريعة والفطرة معا
- دور الحاكم
- المنتحر قاتل نفسه بغير حق

خليفة الله على الأرض

﴿ ... ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ... ﴾

كرم الله الإنسان تكريماً وفضله على سائر المخلوقات تفضيلاً فحباه بنعمة العقل والإدراك ثم أكرمه بالنبوات والرسالات فقد قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[1] فقد جعل الله له شرفاً وكرماً وفضلاً وتجلت مظاهر هذا التكريم فى كثير من الصور والتقدير لأن الله خلقه ليكرمه لا ليهينه .

كان تكريم الله له فى تكوينه هذا التكوين العجيب وتصويره هذا التصوير الأمثل : فلم يكن مثل الحيوان الأعجم يمشى على أربع أو يزحف على بطنه وإنما كان بشراً سوياً .

وكان تكريم الله له أن وهب له نعمة العقل والفكر والبصر والسمع بعد ولادته قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[2] .

وكان تكريم الله له أن رحمه بالنبوات والرسالات حتى لا تنحرف به الطريق عن هداية الله حتى كانت الرسالة الخاتمة فاستغنى بها إلى نهاية الدنيا قال تعالى : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[3] .

وكان تكريم الله له أن وهب له نعمة الكلام والبيان تلك النعمة الى قامت عليها الحضارات وانبثقت منها الثقافات وانتظم بها شمل الوجود وسارت بها الحياة نحو الرقى وتكاملت بها إنسانية الإنسان قال تعالى : ﴿ الرحمن ۝١ علم القرآن ۝٢ خلق الإنسان ۝٣ علمه البيان ﴾[4] .

---

(1) سورة الإسراء (70) .
(2) سورة النحل (78) .
(3) سورة الأنعام (122) .
(4) سورة الرحمن (1) إلى (4) .

وكان تكريم الله له – قبل هذا وبعده – أن صار خليفة الله على أرضه يعمرها بالإحسان ويقيمها بالعدل وينظمها بالحكمة ويسوسها بالمساواة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(1) .

هذه هى مكانة الإنسان : وتكريم الله له ظهر أوضح ما يكون فى احترامه والحفاظ على روحه من عبث العابثين واعتداء المعتدين ، فلا يجوز الاعتداء على نفسه بالقتل ولا على ماله بالنهب والسلب والغصب ولا على حريته بالرق والقهر والإذلال وستكون دراستنا هنا عن أهم وأخطر هذه الأمور وهو « القتل » وإنهاء الحياة وذلك أخطر ما يتعرض له الإنسان فى كل زمان ومكان « القتل » أول جريمة عصى الله بها على الأرض وكانت بين « قابيل وهابيل » ولدى « آدم » ﷺ واغبر بها وجه الحياة فى نظر الأب الثاكل « آدم » والأم الوالهة « حواء » فأصبح الشوك فى الشجر وملح الماء بعد أن كان عذباً وفسد طعم الأكل وحمضت الفواكه والثمرات فقال آدم : « حدث فى الأرض حدث » ويروى أنه قال حين تغيرت الحال :

تغيرت البلاد ومن عليها … فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم ولون … وقل بشاشة الوجه المليح

وروى مسلم عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل دمها لأنه كان أول من سن القتل** » ، وروى من حديث أنس قال : « سئل النبى ﷺ عن يوم الثلاثاء فقال : « **يوم الدم فيه حاضت حواء وفيه قتل ابن آدم أخاه** » قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(2) سَنَّ ابن آدم بهذا النزق والحمق والطيش هذه السنة السيئة فكان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

(1) البقرة (30) . (2) سورة المائدة (27) إلى (30) .

لم تحل فى دين ولا فى جماعة

استقبحت هذه الجريمة فى الأمم القديمة والحديثة على السواء وأنكرتها كل الملل فلم تحل فى ملة قط لما يترتب عليها من مآس وحرب وضرب وتوريث العداوة والبغضاء وإزهاق روح بريئة كانت عند أهلها وأولادها مناط الأمل والرجاء والحامى لهم والمدافع عنهم فأصبحت الزوجة بعده لا عائل لها يستر عليها وأصبح الأولاد يتامى مستضعفين وصار الأب والأم لا أمل لهم فى الحياة من بعده والعائلة لا تهدأ نفسها لما لحقها من الخزى والعار نتيجة هذا الاعتداء الذى وقع عليهم بوقوعه على فرد منهم :

لذا رتب الشارع الحكيم أقسى العقوبات على الجانى حتى يرتدع غيره ونستمع إلى القرآن وهو يتحدث عن هذا الأمر مع أمة سابقة فشا فيها هذا الجرم فسفكوا الدماء حتى اعتدوا على الأنبياء والمرسلين والعلماء والمصلحين قال تعالى : ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾(1) قال مجاهد : « المعنى أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً فلو قتل الناس جميعاً لم يزد على هذا » وعنه : « أن إحياء النفس إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة » .

ونتابع حديث القرآن عن هؤلاء اليهود وحديث القتل فإن هذا الأمر قد أخذ اهتماماً كبيراً فى شريعتهم بما يدمغهم ويقيم الحجة عليهم باقترافهم هذا الإثم ، قال تعالى : ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ... ﴾(2) وهذا يدل دلالة واضحة أن القصاص موجود فى التوراة بقتل النفس بالنفس صغيرة أو كبيرة ذكراً أو أنثى وقلع العين أو

(1) سورة المائدة (32) .

(2) سورة المائدة (45) .

فقؤها بقلع عين الجانى أو فقؤها وقل مثل ذلك فى الأنف إذا جدع والسن إذا قلعت أو كسرت والجروح فإنه يقتص بمثلها من الجانى قطعاً لدابر هذا الفساد وحسماً لدواعيه وبذلك يعيش المجتمع فى استقرار وأمن وينعم الناس بحياة الهدوء والاطمئنان على دمائهم وأرواحهم .

وجاء الإسلام فبشع الجريمة وأنكرها وتوعد بالعذاب الأليم من يفعلها فى الدنيا والآخرة على لسان النبى ﷺ وذلك لشناعة الأمر وخطورته فبدأ به القضاء بين الناس يوم القيامة ، روى البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء** » ، وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » !! قيل : يا رسول الله وما هن ؟ : قال : « **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** » رواه الشيخان ، وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **لن يزال المسلم فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً** » ، وقال ابن عمر - رضي الله عنه - : « إن من وَرَطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله » رواه البخارى ، وعن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق** » رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وعن عبدالله بن عمر قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « **ما أطيبك وما أطيب ريحك ، ما أعظمك وما أعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه** » رواه ابن ماجه ، وروى البيهقى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، قال : وصل المدينة قتيل على عهد رسول الله ﷺ لم يعلم من قتله فصعد النبى ﷺ المنبر فقال : « **يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء** » .

تحريم القتل بالشريعة والفطرة معاً

أرأيت هذا الوعد الشديد والنهى الأكيد والتهديد الصارم لمن يعتدى على الأرواح : إنه أخذ أول الناس وهلك مع الهالكين وهذه آيات القرآن تبين شناعة القتل قال تعالى :- مبيناً صفات عبادة الصالحين - ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[3] .

هذا الوعيد الشديد لمن قتل نفساً متعمداً بغير حق بأى نوع من أنواع القتل بحديدة أو سكين أو عصا أو سيف أو بندقية أو بلكمة فى مقتل ، هكذا كان وعيداً شديداً مطلقاً لم يعرف إلا مع هذه الجريمة الخطيرة ، وحول هذه الآية الآخيرة دار كلام كثير من الصحابة ومن بعدهم من العلماء حول مرتكب هذه الجريمة : هل له من توبة أم لا ؟ فكان عبدالله بن عباس وغيره يرى أن توبته غير مقبولة ، ونترك لسعيد بن جبير يروى روايته عن هذه المسألة : روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : « اختلف أهل الكوفة فى هذه المسألة فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال : : نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ... ﴾ وهى آخر ما نزل وما نسخها شئ » ، وروى النسائى عنه قال : سألت ابن عباس : هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ قال : لا !! وقرأت عليه الآية التى فى الفرقان ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴾ قال : هذه آية مكية نسختها آية مدنية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ... ﴾ .

---

(1) سورة الفرقان (68) . (2) سورة الإسراء (33) .
(3) سورة النساء (93) .

صـــار القتل بغير حق جريمة عظمى حرمت فى كل شريعة وأدركت خطورتها كل فطرة صافية فامتنعت عـن ارتكـابها ولـم تقدم عليها ولعل فى حادثة ولدى آدم « قابيل وهابيل » ما يهدى إلى هذه الفطرة فقد أدرك هابيل حرمة النفس عند الله ولا يليق الاعتداء عليها ، وعلى ذلك أعلن لأخيه قابيل أنه لن يبسط له يداً بأذى حين رأى منه التصميم على قتله حتى يحمل قابيل عبء الجريمة وحده وصار هذا التسليم من هابيل مثلاً فى الصفح والتسليم لله تعالى وباء قابيل بسخط الله فى الدنيا والآخرة .

وضح من هذا أن جريمة القتل والوعيد عليها ثابت بالشرائع - فلم تحل فى شريعة منها - وثابت فى الفطرة والوجدان والنفس الطيبة بمقتضى الخلق والتوجيه الربانى وصار للنفس البشرية حرمة لا يصح الانقضاض عليها مهما كانت الأمور إلا إذا اعتدت هى فارتكبت ما ينقض هذه الحرمة ويبطل أثرها عندئذ ستزول هذه الحرمة عنها وتصبح غير معصومة ويحق عليها ما حدده الشارع الحكيم من عقاب ونستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقرر كيفية أن تصبح النفس غير معصومة فلا حرمة لها وسيتضح أن القتل بحق أوجبه الدين الحنيف ، عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبى ﷺ قال : « **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة** » رواه الشيخان .

دور الحاكم المسلم

هذه أمور ثلاثة أهدرت قيمة الإنسان وأضاعت كرامته وهتكت حرمته وعرضته للقتل ، **أولها** : زنا بعد إحصان وهذه إحدى البلايا والجنايات على العرض والشرف فكان لابد من مواجهة رادعة له وقد انكشف أمره وثبتت إدانته ، **وثانيها** : القصاص من القاتل ليرتدع غيره حتى لا يقتل ، وبذلك يعيش الناس فى أمان وسلام قال

تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] فإذا أدرك القاتل أنه سيقتل قصاصاً بمن قتل فسوف ينتهى عن القتل ، **ثالثها** : أن يخرج من دين الإسلام ويرتد عنه بعد أن أكرمه الله به ليشكل خطراً على الدين الذى أنقذ الإنسانية من الظلمات إلى النور ويصبح فتنة فى الأرض وفساداً كبيراً .

وهناك أمور أخرى وردت بها أحاديث وآيات تسلب النفس حرمتها وتهدر كرامتها ويسير مرتكبها بها فى طريق طويل ينتهى به فى النهاية إلى إنكار تعاليم الدين والتشكيك فيه وإحداث الفتن والشغب فى المجتمع وإثارة الفوضى والعبث بين الناس .

فالذى يترك الصلاة حتى ينتهى به الأمر إلى جحدها والتطاول عليها وعلى من يقوم بها وإنكارها جملة وتفصيلاً ، والذى يمنع الزكاة حتى ينتهى به الأمر - أيضاً - إلى اعتقاد أنها إتاوة كما قالوا فى أيام أبى بكر يقتل ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] والقوى يشق عصا الطاعة ويخرج على نظام الدين ويدعو إلى بيعته فى أيام الفتن حيث تتطلع النفوس إلى الدنيا كما كان يحدث فى الماضى يقتل ، أخرج مسلم عن أبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما** » ، والذى يعمل عمل قوم لوط فيرتكب فاحشة أمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين يقتل ، إنقاءً للمجتمع وإبقاء على سمعة العرض والشرف ، روى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » ، وربما كان قتله أسلم فهماً لهذه الجريمة أعظم حسماً بعد اكتشاف مرض « الإيدز » وانتشاره فى الأماكن التى يحدث فيها هذا العهر والفسق ويكون من معجزات النبوة فلا عبرة لغير هذا الرأى والذى يكون مع غيره عصابة للسطو على البيوت والبنوك وإتلاف الزروع وقتل المواشى أو خطف البنات أو الأطفال أو القتل واغتيال الحكام وابتغاء الفتنة واضطراب الأمن : هؤلاء لا حرمة لهم ويكون جزاؤهم القتل إذا ظفرت بهم

(1) سورة البقرة (179) . (2) سورة التوبة (5) .

الجماعة وهم فى قوتهم وغلبتهم وامتناعهم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن قوماً من عُكْل - أو قال عُرَيْنَة - قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة (استوخموها) فأمر لهم رسول الله ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعى النبى ﷺ واستاقوا النعم فبلغ النبى ﷺ خبرهم من أول النهار فأرسل فى آثارهم فما ارتفع النهار حتى جئ بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وألقوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون » ففيهم نزلت هذه الآيات الكريمة .

والذى يبغى على أحد فينتصر له أقاربه وينتصر للآخر أقاربه وتقوم الحرب بين الطائفتين فوجب أن يتدخل أهل الرأى والحكمة لحسم الأمر بينهما فإذا لم تستجب إحداهما وجب قتالها حتى تكف عن البغى ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(2) .

هذه - وغيرها ذكرت فى كتب الفقه - صور أبطلت حرمة الإنسان وهتكت ستره وكانت سبباً فى إهدار دمه .

وينبغى أن يكون معلوماً : أن للعلماء كلاماً فى بعض هذه الصور فلم تكن محل إجماع بينهم مثل اللواط على سبيل المثال ولكننى نظرت إلى ما تنتهى إليه هذه المسألة حين تشيع الفاحشة وتصبح فتنة فى الأرض وفساداً كبيراً فما الواجب فى مثل هذه اللحظة ، أيترك للعهر والشر العنان أم لابد من ردع ؟ وماذا بعد أن يعترف به وينظمه قانون ويقره برلمان فى دولة كما يقولون متقدمة ؟ وماذا بعد اكتشاف مرض

(1) المائدة (34). (2) الحجرات (10) .

« الإيدز » الخبيث الذى صار يهدد البشرية ؟ من أجل ذلك أطلقت الحكم وجعلته عاماً .

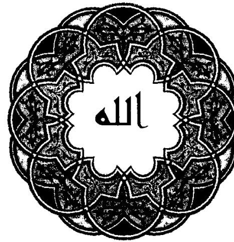
وينبغى أن يكون معلوماً - أيضاً - أن تنفيذ هذه الأحكام ليس موكلاً إلى الأفراد أن يقوموا به وإنما هو خاص بولى الأمر حفظاً للأمن وقياماً بواجب الجزاء والردع حين يطلب الجزاء ويجب الردع فليس لولى المقتول أن يقتل بنفسه من قتل ، نعم للأفراد الحق فى ذلك فى حالة واحدة وهى حالة الاعتداء الصارخ على المال والعرض بشرط التلبس الكامل بالجريمة ولم يجد المعتدى عليه وسيلة للدفاع عن ماله غير قتل المعتدى : ونسوق فى هذا الأمر رواية عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : أنه كان يوماً يتغدى إذ جاءه رجل يعدو وفى يده سيف ملطخ بالدماء ووراءه قوم يعدون خلفه جاء حتى جلس مع عمر ثم جاء الآخرون فقالوا : يا أمير المؤمنين إن هذا قتل صاحبنا فقال عمر : « ما يقولون ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين !! إنى ضربت فخذى امرأتى فإن كان بينهما أحد فقد قتلته فقال عمر : ما يقول ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين إنه ضرب بالسيف فوقع فى وسط الرجل وفخذى المرأة ، فأخذ عمر سيف الرجل وهزه ثم دفعه إليه وقال له : إن عادوا فعد » .

المنتحر قاتل نفسه بغير حق

وأخيراً . . هذا الذى يقتل نفسه بأى نوع من أنواع القتل هو من غير شك قاتل نفس بغير حق هو كغيره فى الذنب سواء ، عليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة .

هذا . . ولقد تعددت فى القرن الحديث صور الانتحار حتى أصبحت فى متناول اليد وسهلة ، هذا يخنق نفسه أو يصعقها بالكهرباء ، هذا يلقى بنفسه من فوق برج عال أو تحت عجلات القطار أو يصوب فوة المسدس داخل فمه أو أذنه ، هذا يأخذ قرصًا تكون فيه القاضية أو مادة سامة ، هذا . . . ، وهذا . . . وقد صدق فى الجميع قول رسول الله ﷺ : عن أبى هريرة : « **من تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نارجهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى**

يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداً فيها أبداً » رواه البخارى ومسلم والترمذى ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار ، والذى يطعن نفسه يطعن نفسه فى النار ، والذى يقتحم يقتحم فى النار** » رواه البخارى ، وروى ابن حبان فى صحيحه عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - أن رجلاً كانت له جراحة فأتى قرناً له فأخذ مشقصاً فذبح به نفسه فلم يصلِّ عليه النبى ﷺ ، وفى رواية « **كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله : بادرنى عبدى بنفسه فحرمت عليه الجنة** » رواه البخارى ومسلم .





الفصل السادس

امسح رأس اليتيم

- الأطفال ... الأطفال
- قضية اليتامى فى القرآن
- درجة عالية لأم اليتامى
- تربية اليتيم وتعليمه

الأطفال .... الأطفال

﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ...﴾

الأطفال - ومازالوا - هم اللبنات الرطبة التى يقوم عليها بناء المجتمع فى المستقبل والبراعم الناعمة التى تتفتح فتشيع فى الأمة الحيوية والقوة والبسالة والتضحية والشجاعة والإقدام فهم رجال الغد وأمل الحاضر وعُدَّة المستقبل ومعقد الرجاء وأمان الوطن .

وبقدر ما تبذل الأمة فى تربيتهم وإعدادهم وتعليمهم وتثقيفهم بقدر ما تأخذ منهم رجالاً عاملين ومواطنين صالحين يدفعون عنها كيد الأعداء .

واليتيم واحد من هؤلاء الأطفال قد فقد أباه ، ففقد بفقده الحنان الذى كان يحنو عليه والعطف الذى كان يتمتع به والأمل الذى كان ينشده والمودة التى كانت تظلله والمحبة التى كانت تستره والرحمة التى كان يمرح فى جنباتها والشفقة التى كان يأنس بها ، حرمه القدر من هذا كله فأصبح فى حاجة شديدة إلى من يشعره بالحنان الذى فقده - ونحن المسلمين - لا منجى لنا أمام الله إلا إذا قمنا بواجب هؤلاء اليتامى الضعفاء التعساء .

قضية اليتامى فى القرآن

ولقد اهتم الإسلام بقضية اليتامى اهتماماً كبيراً حتى رأينا الآيات الكريمة فى أوائل التنزيل وختامه فى مكى القرآن ومدنيه تعرض لأمر اليتيم وتشرح شأنه وتبين ضعفه وذله وتهيب بالمسلمين - خاصة الأوصياء - أن يكونوا على حذر من مال اليتيم .

وقد بدأ الإسلام بشأن هؤلاء الأطفال عقب عودة الوحى الأمين بعد انقطاعه - مدة فترة الوحى - فذكر رسول الله ﷺ بأيامه الأولى حيث كان يتيماً فحفظه الله ورعاه ونشر عليه رداء المحبة والقبول وفتح له قلوب الناس فى مكة وإذا كانت عناية الله به فى أول حياته - ولم يكن غياب الوحى عنه كراهية له ولا إنكاراً لرسالته بعد

اصطفائه لها - قد بلغت درجة كبيرة فحرى به بعدها وقد كان يتيماً أن يرعى حقوق اليتامى والمساكين وأن يجعل لهم من عنايته ما يعوضهم عما فقدوه قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(1) .

ولقد كان الرسول ﷺ حبيب اليتامى : يؤانسهم ويداعبهم ويعطف عليهم ويوصى بهم فجعل صحبته فى الجنة لمن يكفلهم بصدق وإخلاص ويقوم بواجبهم ويرى شئونهم بأمانة ونصح ، عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « **أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا : وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما** » رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

كما وجه الدين الحنيف عناية خاصة لأموال اليتامى لأنها عرضة للضياع وخشية عليها من الطمع والجشع من جانب الأوصياء والأعمام ، وكانت هذه العناية خوفاً من هؤلاء الأقارب الذين يهجمون على الأموال دون حسيب أو رقيب فيضيفونها إلى أموالهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾(2) .

ومن صور الإحسان إليهم : أنه جعل الوصية بهم والعطف عليهم إحدى هذه الوصايا العشر التى لم تنسخ فى ملة من الملل التى نحن بصددها والمبدوءة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... ﴾ وروى الحاكم وصححه : أن رسول الله ﷺ قال : « **أربعة حق على الله ألا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم ، والعاق لوالديه** » ، وفى ليلة المعراج رأى رسول الله ﷺ صورة بشعة مروعة لهؤلاء الذين يأكلون حقوق اليتامى ولا يرعونها حق رعايتها ، ففى حديث المعراج الذى رواه مسلم : « **فإذا أنا برجل قد وكل بهم رجال يفكون لحاهم وآخرون يجيئون بالصخور من النار فيقذفونها فى أفواههم فتخرج**

(1) سورة الضحى .
(2) سورة النساء (2) .

من أدبارهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً » ويؤيد ذلك الكتاب ويصدقه قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾(1) .

وكما قرر الدين العناية بمال اليتيم حفظاً له من الضياع فإنه يقرر دفعه إليه إذا بلغ رشده دون إبطاء أو مطل لأنه – والحالة هذه – أحق بإدارة شئونه من وصيه فقد بلغ مبلغ الرجال واستوى على عوده وعرف النافع من الضار والصواب من الخطأ وليكن ذلك بمجلس من أهل الخبرة والحكمة والرأى وذلك أمر الله عز وجل فى قوله : ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾(2) .

وإذا تقررت العناية بأموال اليتيم على هذا النحو الطيب والطريقة المثلى فإن الدين يوجه النفوس إلى حسن معاملته فى البيت حتى لا يشعر بفراغ نفسى فيكره بذلك الحياة والأحياء نتيجة حرمانه من العطف والشفقة وكان من علامات التكذيب بيوم القيامة إهانة اليتيم وعدم العطف عليه وإهمال شأنه وازدراؤه وعدم الاكتراث بأمره ، قال تعالى ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾(3) .

خاف المسلمون وتأثروا بهذه الآيات التى تحذر من شأن اليتيم كله خاصة فى الآيات المكية ووقفوا متحرجين متأثمين : أية طريق يسلكون ؟ وأى عمل يعملون ؟ أيتركونه وشأنه وفى ذلك ضياع له ؟ أم يقومون عليه وفى ذلك موطن الخطر ؟ أم يعزلونه عن أولادهم فى مأكله ومشربه فيشعر بالذلة والمسكنة والهوان ؟ تاقت نفوس الناس إلى حل وسط ونظام أمثل يكفل لليتيم الهدوء النفسى وللقائمين على أمره مرضاة الله تعالى وكان ربهم بهم رحيماً فنزل قول الله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ**

(1) سورة النساء (10) . (2) سورة النساء (6) .
(3) سورة الماعون .

الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن نبى الله ﷺ قال : « **من قبض يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر** » رواه الترمذى ، وعن أبى موسى - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم شيطان** » رواه الطبرانى فى الأوسط ، وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه** » رواه ابن ماجه .

إن العطف على اليتيم والرحمة به والعناية بشأنه طريق إلى مرضاة الله والدخول فى ساحته كما أنها تطهر النفس وترقق الوجدان وتهذب القلوب ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - : « أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : « **امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين** » رواه الإمام أحمد .

وإذا كانت العناية بيتيم واحد تجلب لصاحبها هذه السعادة كلها وتورثه النعيم فى الآخرة وتجعل له الغنى فى الدنيا فإن العناية بأكثر من يتيم تجعل له أكثر من هذا وترفعه فى درجة عالية عند الله تعالى و ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟! ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره وغدا وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله وكنت أنا وهو فى الجنة أخوين كما أن هاتين أختان** - وألصق أصبعيه السبابة والوسطى » رواه ابن ماجه .

ودرجة عالية لأم اليتامى

فإذا رسم الإسلام طريقاً واضحاً للعناية بشأن اليتامى أمام الأوصياء والأعمام وحذرهم من إهانتهم فإنه يبين فضل المرأة التى حبست نفسها على أيتامها الصغار الذين مات عنهم أبوهم وخلفها عليهم . . . فتركت زينتها من أجلهم ولم تتزوج بعد أبيهم فشاه منظرها وحال جمالها وشحب وجهها وذهب بهاؤها وزال

(1) البقرة (220) .

ضياؤها ، عن عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «**أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة** - وأومأ بيده يزيد بن زريع بالوسطى مع السبابة - **امرأة آمت زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا** » رواه أبو داود .

فإلى كل امرأة ابتليت من أمر الأطفال بشئ نسوق إليها دوراً كريماً من أعمال الخير والبر وعملاً من صالح الأعمال لن يضيع ثوابه عند الله فى الدنيا والآخرة جزاء ما قدمت لأولادها اليتامى من خدمة وتربية وسهر على راحتهم وإسعادهم فأعطتهم عصارة حياتها ونضارة بدنها . . . وإلى الأعمام والأوصياء نبين لهم ثواب هذه المرأة ونضع أمام أعينهم هذه الموعظة من كلام الله العزيز : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾(1) .

تربية اليتيم وتعليمه

أيها الأوصياء والأعمام وكل من وضع الله فى أيديهم أمر الأيتام : إن من تمام عناية الدين بأمر اليتيم أنه أمر بتعليمه وتثقيفه وتربيته وتهذيبه وأخذه بالقدوة الطيبة فى المعاملة حتى يشب على الأخلاق الكريمة والسلوك القويم ، واعلموا أنكم بهذا العمل تقدمون للمجتمع لبنة صالحة فى بنائه وتعطون للأمة رجلاً نافعاً يسهم فى رقيها وتقدمها .

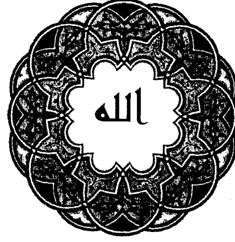
فرب صغير قوم علموه   سما وحمى المسومة العرابا

إن الدهر قلب وإن الزمان ليدور ودورته عنيفة صارمة وإن بدت هادئة لينة وإن الأيام دول بين الناس ويوم لك ويوم عليك ولا تدرون ما يفعل بكم غداً فتذكروا تقلب الزمان وغدرات الأيام واعلموا أنكم اليوم فى بحبوبة من العيش وفسحة من العمر تسبغون على أولادكم حناناً غامراً وسعادة وهناء ، فليكن لليتيم نصيباً من هذه المحبة وحظ من هذا الحنان فربما تموتون غداً وتتركون أولادكم يتامى مثله ، والسعيد من اتعظ بغيره وقدم ما ينفع نفسه وولده .

---
(1) سورة النساء (9) .

إن اليتيم ليس منقصة فأدبوا اليتيم بأدب الله وعلموهم واهتموا بشأنهم حتى ينتفع بهم الوطن وترقى بهم الأمة ولا يكونوا أداة فساد أو تدمير أو يكبروا حاقدين على الناس والمجتمع ، علموهم فنحن نعلم أن كثير من النابهين وذوى الشأن والرأى كانوا يتامى ، علموهم فربما يكون منهم مثل « طرفة بن العبد » فى شعره وأدبه أو « أبى نواس » فى ظرفه وتجديده أو « حاتم الطائى » فى جوده وسخائه أو« محمد بن إدريس الشافعى » فى فقهه وإمامته واستنباطه أو « أحمد بن حنبل » فى حديثه وروايته أو « البخارى» فى صبره على جمع حديث رسول الله ﷺ أو « البارودى » فى تجديده وشاعريته أو « حافظ إبراهيم » فى شعره وفكاهته أو « على يوسف » الصحافى المشهور .

أيها الأوصياء والأعمام : إنكم بهذه العناية والرعاية تقدمون للمجتمع أناساً يقومون بواجبهم ويسهمون مع غيرهم فى بناء الأمة وأنتم بهذا العمل تقومون بواجب مقدس فليكن رائدكم خوف الله والبعد عن المعصية بالتقصير فى هذا الواجب العظيم وإهمال خدمة هذا الإنسان الضعيف ابتغاء وجه الله تعالى .





الفصل السابع

هذه الآفة المرذولة

- ذنب كبير وعقاب أليم
- عبرة وتحذير وإرشاد
- اضبطوا ما استطعتم

هذه الآفة المرذولة

﴿ ... وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ... ﴾

هذا ذنب من كبائر الذنوب اقترفته أمة من الأمم القديمة فاستحقت أن يدمر الله عليهم ويهلكهم فكانوا بذلك عبرة فى الأولين ومثلاً للآخرين ، هذا الذنب الكبير : هو الآفة الكبيرة التى ارتكبها قوم شعيب - عليه السلام - فى غابر الأزمان وقص علينا القرآن قصتها فى غير موضع من سوره : أن هؤلاء برعوا أيما براعة فى تطفيف الكيل وبخس الميزان فكانوا من أخبث الناس معاملة يبخسون الميزان ويطففون المكيال كانوا كما قيل عنهم : يأخذون بالزائد ويعطون بالناقص ويتضح خبث من يفعل ذلك ودناءته إذا علمت أنهم أشد على الناس من اللصوص ، لأن السارق لا يستطيع أن يتحايل على الناس ولا يجد ما يستر به جريمته فهو فى نظر الناس سارق على أى وضع يكون عليه ، أما هؤلاء فيرتكبون جريمتهم تحت ستار المعاملة الحرة وبأداة العدل « الكيل والميزان » لذلك أعد الله تعالى لهذه الجريمة ما أعد لها من نكال وعذاب فى الدنيا والآخرة .

والتطفيف - كما هو واضح - يكون بالبخس فى الكيل والميزان وهو نقص يخون به صاحبه فى كيل أو وزن وهو ضرب من الخيانة وأكل لأموال الناس بالباطل كما أنه مضيع تماماً لدواعى النبل والمروءة من نفس مرتكبه وهو علة العلل وآفة الآفات فى ميدان البيع والشراء وإن شئت فقل : إنه الفسق المقنع و « **من غشنا فليس منا** » قال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له : اتق الله . . . أوف الكيل والوزن بالقسط فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العرق إلى أنصاف آذانهم » ونقل ابن حجر الهيثمى تصريح العلماء بأنه من الكبائر واستظهره » .

ومن أجل ذلك كانت وظيفة الحسبة والمحتسب من الوظائف المهمة فى المجتمع الإسلامى حفظاً لحقوق الناس ومراقبة هؤلاء الناس وغيرهم ومنعهم من التلاعب بأقوات الناس وأموالهم .

ذنب كبير وعقاب أليم

والتطفيف والبخس فى الكيل والميزان علة قديمة وجدت مع المجتمع البشرى - ومازالت وستظل - يرتكبها الناس طالما وجد فيهم من يطمع فى أموال الناس وأقواتهم ، وترجع شهرة قوم شعيب به دون غيرهم من الأمم لأنه داء استفحل فيهم واستشرى فى مجتمعهم حتى أصبح همهم القاتل وشغلهم الشاغل الذى طغى على كل شئ وتولد منه ما تولد من المعاملات الرديئة القبيحة فأصبح داءً أصيلاً فيهم وجدت منه أدواء أخرى فكانوا أول من سن المكوس والجبايات والعشور والإتاوات من أموال المارة فحق فيهم وأمثالهم ما ورد فى السنة من الوعيد الشديد ، روى الإمام أحمد وأبو داود « **لا يدخل صاحب مكس الجنة** » وقال تعالى : ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1] نبه شعيب قومه إلى مجموعة من الأمور لا يصح أن تكون فيهم ولا أن تصدر منهم لأن بها محق البركة وذهاب الثروة وكل الدلائل تشير أنه يتمنى لهم الخير لأن الله أرسله إليهم - **فأولاً** : أعطوا الناس حقهم كاملاً بالوزن الذى تزنون به والكيل الذى تكيلون به - **وثانياً** : لا تأخذوا من الناس شيئاً ولا تظلموهم فى البيع والشراء ، **وثالثاً** : لا تعملوا فى الأرض بالفساد والمعاصى بعد أن أصلحها الله بإرسال المرسلين ، **ورابعاً** : لا تقطعوا الطريق على المارة وتخوفونهم بالقتل بغية ابتزاز أموالهم وصدهم عن هداية الله وانحرافهم عن الطريق المستقيم ، **وخامساً** : اذكروا حين كنتم قلة مستضعفين فصيَّركم الله كثرة وهى نعمة يجب لها الشكر الجزيل . . . فاعتبروا بما نزل من عقاب للأمم السابقة انتقاماً منهم حين عصوا رسل الله .

---

(1) سورة الأعراف (85) .

وقال الله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1] كرر شعيب نفس الدعوة على قومه كى يرجعوا عن الفعلة القبيحة ثم تراه ينبه على أمرين زيادة على ماسبق – **الأول** : أنه رآهم فى سعة من الرزق وبحبوحة من العيش وكثرة من نعــم الحيـاة وكل ذلك يجعلكم فى غنى عن نقص الكيل والميزان ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ و**الثانى** : أنه ينبههم : أن ما يتبقى لكم من ربح البيع والشراء خير لكم من أخذ أموال الناس عن طريق التطفيف ورزق الله خير لكم من هذا الاعتداء على أموال الغير ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] .

نرى فى هذه المجموعة من الآيات أن شعيباً وجه الدعوة أيضاً إلى قومه منبهاً على ترك هذه المعصية الجسيمة ولكن بالإضافة إلى ما سبق نجد أن القوم تطاولوا على الرجل الصالح فقالوا عنه : أنه سحر عقله كثيراً فلا يعى ما يقول وهو بشر مثلهم وليس برسول وبالتالى سوف يكون من الكاذبين وبناء على هذا كله : إن كان يتهددهم بعذاب فليأت به إن كان صادقاً فى زعمهم فكان لابد من حسم لهذه المهزلة التى بلغت حداً كبيراً فى الشناعة والقبح ، قال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

---

(1) سورة هود (84) إلى (86) . (2) سورة الشعراء (185) .
(3) سورة الأعراف (91) .

وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾[2] .

هذه هى نهاية الطغيان والجبروت والظلم : أصبحوا فى ديارهم جاثمين موتى هامدين لا حراك بهم ، قال « ابن كثير » : وذكر ههنا - فى سورة « هود » - أنه أتتهم صيحة ، وفى « الأعراف » رجفة ، وفى « الشعراء » عذاب يوم الظلة ، وهى أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النعم كلها وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه » وهكذا أسدل الستار على هذه المأساة وكانت عبرة ومثلاً لمن يأتى بعدهم إلى يوم الدين .

عبرة وتحذير وإرشاد

وإذا كان قد حدث هذا الجرم من أمة سابقة بينها وبين الناس فى هذه القرون الحديثة ما بينهم من الزمن الطويل ، فهل اتعظ الناس بما قصه القرآن وكتبه التاريخ عنهم فأقلع كل غاش وانتهى كل مطفف عن هذا المنكر ؟ لقد قلنا من قبل إن هذه الآفة تلازم الناس طالما هناك بيع وشراء وطالما لا يخشون الله ولا يخافون من عقابه ومن أجل ذلك كان الأمر من الله أمراً قاطعاً بالوفاء قال تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ قال قتادة « خير ثواباً وأحسن غاية » وكان ابن عباس يقول : « يا معشر الموالى إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم : هذا المكيال وهذا الميزان » وعن عبدالله ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « **يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من**

---

(1) سورة هود (95) .
(2) سورة الشعراء (189) .

السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسول الله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » رواه ابن ماجه .

هذا وعيد شديد بأمور تمحق البركة وتقضى على الأمن والاستقرار وتحذير من الرسول الأمين وإشفاق منه أن تكون فى أصحابه الذين رباهم وكان منها هذه الآفة الملعونة ولقد أبرز القرآن هذا الوعيد الشديد فى صورة عذاب أكيد فى الآخرة فى مطلع سورة من سوره حملت اسم هؤلاء الناس المعتدين على حقوق الناس وأموالهم مع ما يكون لهم فى الدنيا من القحط والمجاعات والأزمات الطاحنة وذهاب البركة من الزروع والثمرات وشدة الجدب ، قال تعالى : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[1] روى ابن ماجة وابن حبان عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .

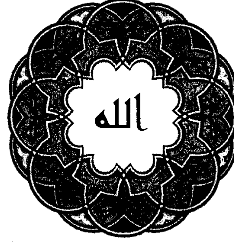
وكانت هذه الآفة – وما زالت – موضع ازدراء واحتقار فى نظر الصالحين من عباد الله ، روى أن أبا هريرة – رضي الله عنه – قدم المدينة وقد خرج النبى ﷺ إلى خيبر واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة فقال أبو هريرة فوجدناه فى صلاة الصبح فقرأ فى الركعة الأولى ﴿ **كهيعص** ﴾ وقرأ فى الركعة الثانية ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ قال أبو هريرة : فأقول فى صلاتى ويل لأبى فلان كان له مكيالان إذا اكتال اكتال بالوافى وإذا كال كال بالناقص ، وقال الأصمعى : « سمعت أعرابية تقول : لا تلتمس المروءة ممن مروءته فى روءوس المكاييل ولا ألسنة الموازين » ، وقال مالك بن دينار : « دخلت على جار لى قد نزل به الموت فجعل يقول جبلين من نار !! جبلين من نار !! فقلت ما تقول ؟ أتهجر ؟ قال : يا أبا يحيى كان لى مكيالان

(1) سورة المطففين .

أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما فقال : يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظماً فمات من وجعه » .

اضبطوا ما استطعتم

وبقيت كلمة أخيرة فى هذا الأمر : وهو ما يشير إليه قوله تعالي ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ ولعل المراد - والله أعلم - أن الإيفاء يكون بالوضع الذى يستريح إليه القلب الطيب : أى جهد الاستطاعة ، بقدر الإمكان حتى يغلب على الظن أن هذا هو الحق ونضرب لذلك مثالاً : الصنجة التى تزن الكيلو جرام أو أكثر أو أقل أو الموازين عموماً من المعلوم أنه فى كل مكان يشرف عليها هيئة لضبطها كل عام مرة على الأقل وبكثرة الاستعمال سوف تنبرى الصنجة والميزان الكبير - الطبلية - قد يكون فيه بعض الشئ بحيث يدق على الوزان أمام هذا نقول : إن المطلوب هو التحرى جهد طاقة الإنسان لأن هذا شئ يخلق الاحتراس منه ونجد ذلك فى كثير من التكاليف التى كلف بها الإنسان ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ .





الفصل الثامن

العدل ... لا الظلم

- أساس الاستقرار فى الحياة
- فى القضاء والشهادات والعقود
- من صور تضليل القضاء

﴿ .... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .... ﴾

والعدل إعطاء كل ذى حق حقـه : إعطاء المحسنين جـزاء إحسـانهم ومـؤاخـذة المسيئين على قدر إساءتهم والضرب على أيدى المجرمين حتى يرجعوا عن عصيانهم وفسوقهم دون مراعاة لمناصبهم وأحسابهم والعمل على جعل القصاص شرعة غالبة وإقامة الحد على كل من تسول له نفسه الخروج على آداب المجتمع والدين . . . عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قـال : قـال ﷺ : « **لحـد يقـام فى الأرض خـيـر لأهـل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحاً** » ، وروى النسـائى عن أبـى هريرة - رضي الله عنه - : « **إقامة حد فى الأرض خـير لأهلها من أن يمطروا أربعين ليلة** » ولفظ ابن ماجة ، قال رسول الله ﷺ : « **إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحاً** » .

أساس الاستقرار فى الحياة

ولاشك أن العدل من أهم دعـائم الحيـاة السعيدة التى يسعى البشر دائماً إليـهـا ويودون أن يطمئنوا على حياتهم وأموالهم وأعراضهم فى ظلها ولا سبيل إلى السلام العالمى ما لم يكن للعدل كلمة نافذة وقوة حاسمة وسلطان يرد إلى صاحب الحق حقه : يقف فى وجه الباغى حتى يرجع عن بغيه يعمل على إخضاع المفسدين الطغاة لقانون الآداب ويضرب على أيدى الظالمين البغاة الذين يكدرون على الناس صفوهم ويقلقون أمنهم وراحتهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(1) ، وقال عز شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾(2) وبهـذا كـان العدل أول مـا قـرره الإسلام حفظاً لكيـان المجتمع البشرى من عوامل الشر والفسوق فعنى القرآن عناية كبرى ونهى عن الظلم وحذر منه مع المسلمين وغيرهم وذلك أمر الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا

(1) سورة البقرة (179) . (2) سورة النحل (90) .

تتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(1) .

ومن أجل ذلك كله : كان العدل من أساسات الدعوة الإسلامية التى نهض بها رسول الله إنقاذاً للبشرية من ظلمات البغى والجهل والعدوان والطيش ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(2) .

ولما كان العدل أحد المبادئ الثابتة التى ينهض بها المجتمع الإنسانى !! لذا أمر به القرآن أمراً عاماً دون تخصيص بفرد دون فرد ولا بطائفة دون طائفة لأنه نظام الله وشرعه والناس خلقه وعباده يستوون عنده جميعاً - الصغير والكبير الأبيض والأسود الضعيف والقوى المسلم والكافر - فهم فى العدل سواء ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾(3) .

وأمر الله به فى كل شئ فى كل أمر من الأمور وكلف به المرء فى خاصة نفسه فعلى الرغم من أن الله أباح تعدد الزوجات إلا أنه قيده بالعدل حتى لا تطغى زوجة على حق الأخرى قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(4) .

فى القضاء والشهادات والعقود

وأمر الله به فى كتابة العقود والوثائق لحفظ الديون حتى لا يطغى أحد الجانبين على الآخر وتعين ذلك دفعاً للنزاع ودرأ للشقاق وطرداً لأسباب الشحناء والطمع والجور ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾(5) وما كانت شهادة الزور وضياع الحقوق بين الناس إلا نتيجة تحريف

(1) سورة النساء (135) .
(2) سورة الشورى (15) .
(3) سورة النساء (124) .
(4) سورة النساء(3) .
(5) سورة البقرة (282) .

الشهادات ومخالفة أمر الله وترك العدل .

ولما كان القضاء يمثل فى حياة الناس جانباً على درجة كبيرة من الأهمية لأنه يتصل بالحقوق والمعاملات والأموال والأعراض والأرواح وكان عرضة لتدخل الأهواء والعواطف وغير ذلك من خطرات النفس فيه ، فإن الله أمر بالعدل المطلق الذى لا يعرف المحاباة والعواطف والقرابات ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[1] فلا شفاعة فى الحكم ، ولا وساطة فى الحد ، ولا مهادنة للظلم ، ولا رضا عن الباطل ، فالجميع مسئول عن حدود الله وأوامره ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجل فقد ضاد الله عز وجل ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال** » رواه أبو داود والطبرانى ، وما أوتيت الإنسانية فى عهدها الطويل إلا بسبب البعد عن العدل ورضاها بالعدوان على الحقوق ، وسكوتها على المنكر يتسرب فى المجتمع دون رقيب فيصيب الأمة فى مرافقها ولن ترى أمة ضعفت بعد قوة إلا وجدت فيها كفة العدل طائشة وكفة الظلم راجحة .

وقف المسلمون للظلم والجور بالمرصاد فطهروا مجتمعهم منهما ولم يهادنوا الظلمة والجائرين ورأينا فى ذلك مواقف رائعة للعلماء والمصلحين فى كل زمان ومكان ، حينما سرقت المرأة المخزومية حلياً وقطيفة من جارتها ووجب عليها حد السرقة اهتمت قريش لهذا الحدث حتى يدفعوا عن أنفسهم عار السرقة ولكنهم هابوا أن يكلموا رسول الله وأوعزوا إلى أسامة بن زيد بأن يشفع للمرأة لدى الرسول : عن عائشة - رضى الله عنها - أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ ثم قالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ : « يا

(1) سورة النساء (58) .

أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : « إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » رواه البخارى ومسلم وأبوداود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

من صور تضليل القضاء

وهو ما يحدث وفى كل مكان فى كل عصر ويحاوله كل من يتعرض للمساءلة : هذا أمر تعرض العدل فيه للخلل والاضطراب والتضليل لولا نزول الوحى الأمين .

هذه حادثة وقعت على عهد رسول الله ﷺ وكاد وجه الحقيقة فيها يختفى ، وتتلخص هذه الحادثة : أن رجلاً من أهل المدينة ضعف إيمانه ورق إسلامه يقال له « طعمة بن أبيرق » سرق درعاً من جاره وخبأها عند صديق له من اليهود وحامت الشبهة حول طعمة فحلف بأنه ما خبأها وليس له بها علم ، والتمست الدرع عنده فلم توجد ثم وجدت عند اليهودى فلما سئل فى ذلك ، قال : خبأها طعمة عندى واستحفظنى عليها وشهد بذلك جماعة من اليهود ، فأخذ أهل طعمة يهتمون بالأمر وأخذوا يوغرون صدر رسول الله على اليهودى خاصة وعلى جماعة اليهود عامة وذكروه بالعداوة التى بين المسلمين واليهود وحلفوا بالله جهد إيمانهم على براءة صاحبهم وأنهم لا يعلمون عنه إلا خيراً وسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدافع عن صاحبهم حتى يدفع عنه تهمة السرقة وألحوا عليه فى هذا الشأن . . .

كادت القضية - بهذا التضليل - تتحول عن وضعها الطبيعى وكادت معالمها تختفى بسبب هؤلاء النفر الذين التفوا حول الرسول ولبسوا مسوح الصلاح والتقوى وأظهروا غيرتهم على الحق والعدل وكاد الرسول يتأثر بخداعهم وتلبيسهم فنزل الوحى الأمين ليضع الحق فى نصابه ويبين وجه الصواب فى القضية ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا**

أثيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

هذا هو الدليل الذى كشف الله به نوايا قوم طعمة ومنه يظهر الغضب الإلهى على الظلم والظالمين كما اتضح منه أن الإسلام لا يعرف المجاملة ولا المحاباة ورسم طريقاً معبدة للسلام العالمى الذى تتهادى به الأمم والشعوب ولن يكون إلا بتنقية الضمائر وسبيل ذلك هو العدل وحده .

وهكذا . . . تظهر الحقيقة وسط الضباب الكثيف : كشف دستور الإسلام الخالد بيضاء بياض النهار مشرقة إشراق الشمس وكانت خير برهان على أن الدين الحنيف لا يعرف محاباة فى حكمه ولا مجاملة فى قضائه فالناس جميعاً - قويهم وضعيفهم - أمام عدل الله سواء . . . .

ثم كانت أوضح دليل على مقت الله للظلم فى كل صوره وألوانه مهما كانت أقدار الناس وعلاقتهم بالحاكم أو القاضى .

وأخيراً . . رسمت هذه الحادثة طريقاً مستقيماً إلى السلام العالمى تعيش فى ظله أم الأرض هانئة سعيدة آمنة مستقرة ولن يكون ذلك إلا باطراح الظلم والبغى والعدوان والجشع والطمع والأخذ بتلابيب العدل والحق والإنصاف .

---

(1) سورة النساء (105- 114) .

الفصل التاسع

الموثق الغليظ

- صورتان مختلفتان
- عليكم بالوفاء
- من صور الغدر الكريه
- عهود أكيدة ومواثيق

﴿ ... وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ... ﴾

صورتان مختلفتان

وقبل الحديث عن هذا الخلق الطيب - الوفاء بالعهد - يحسن أن نورد هاتين الصورتين - أما **الأولى** : فقد رواها البخارى ومسلم والنسائي عن أنس - رضي الله عنه - قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء : يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها دون أحد قال سعد : فما استطعت يا رسول الله أصنع ما صنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه ، فقال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(1) .

وأما الصورة **الثانية** : فهذا النهى الذى ذكره ربنا تبارك وتعالى فى الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(2) قال المفسرون : - حول هذه الآية - شبهت هذه الآية من يخلف ويعاهد ثم ينقض عهده بهذه المرأة التى كانت تغزل غزلها وتنقضه ثم تحله وكانت هذه المرأة حمقاء بمكة تسمى « ريطة بنت عمرو » وصار ذلك مثلاً على سوء الغدر ونقضه ، كما قالوا : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كانوا يتعاهدون : تعاهد القبيلة قبيلة أخرى ثم إذا رأت قبيلة أخرى قوية يخشى بأسها غدرت بالأولى ونقضت عهدها وعاهدت القبيلة القوية ولا شك أن هذا فعل قبيح .

(1) الأحزاب (23) . (2) سورة النحل (92) .

هاتان صورتان متضادتان ولا يمكن أن تجتمعا لأنهما فى أصل الوضع مختلفتان فكما لا يتآلف النور والظلام وكما لا يجتمع الخير والشر والحق والباطل وكما لا تتعانق المحبة والكراهية والتضحية والأثرة ، كذلك ليس هناك من وفاق بين الصورتين .

فالأولى : مثال التضحية النادرة واحترام العهد والكلمة من أجل عقيدة سامية مثال الوفاء العميق من أجل المبدأ العظيم الذى عاهد المؤمن ربه عليه .

والثانية : مثال الحمق والخرق الذى يصيب الحمقى نتيجة اختلال فى قواهم العقلية واعتلال فى الوازع الدينى الذى خف فى قلوبهم ، فهم لا يحسنون عملاً ولا ينهضون بواجب الكلمة التى قطعوها على أنفسهم وهذا فرق ما بين العاقل والأحمق وصاحب المبدأ وغيره .

عليكم بالوفاء

ومن أجل ذلك كان التأكيد على احترام الكلمة والتزام العهد والقيام بواجب الوفاء من الأمور التى أمر الله ورسوله بها فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾[1] ، وروى البخارى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : « **ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره** » .

ولعظم العهد والوفاء به وخطورة الخلف وسوء الغدر بين الله عز وجل أنه - سبحانه - يفى لعباده بما وعد ، قال عز شأن ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[2] ، قال الزمخشرى رحمه الله : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق فكيف بالغنى - سبحانه - الذى لا

(1) سورة النحل (91) . (2) سورة التوبة (111) .

يجوزعليه القبيح ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن منه وأبلغ » .

فالعهود والمواثيق والعقود والأيمان يجب الوفاء بها ، وإذا كان الوفاء مع الخالق جل وعلا واجباً باجتناب المنهيات وأداء المأمورات ، فإنه يجب أيضاً مع المخلوق حتى تستقيم الأمور وتسير المعاملات بين الناس سيراً حسناً فإن شؤم الغدر يعود على المجتمع بشر خطير : هو نزع الثقة من النفوس وذلك شر ما تبتلى به الأمم والشعوب وشر ما يكون إذا كان من المسئولين ومن ولوا أمرها ، روى الإمام أحمد وابن حبان عن أنس - رضي الله عنه - قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : « **لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له** » هكذا . . بالنفى الأكيد فكان الإخلاف والغدر من الأمور التى ينأى عنها العقلاء ويقدم عليها الحمقى الأغبياء .

من صور الغدر الكريه

وهذه قصة « ثعلبة الأنصارى » الفقير وهى من غير شك تحدث فى كل زمان ومكان حين يتمنى أصحاب الهمم القاصرة والنفوس الضعيفة ما ليسوا له بأهل ولا يستطيعون القيام به فيسقطون سقطة لا قيام لهم من بعدها أبداً !! قال الرجل للرسول عليه الصلاة والسلام - يوماً - : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال : « **ويحك يا ثعلبة !! قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه** » فعاوده مرة ثانية : يا رسول الله ادع لى أن يرزقنى مالاً ، فقال النبى ﷺ : « **أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ، والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت** » قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالاً لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم ارزق ثعلبة مالاً** » فاتخذ غنماً فنمت كما تنمى الدود حتى ضاقت عليه المدينة فخرج منها ونزل وادياً قريباً منها وجعل لا يصلى إلا الظهر والعصر مع الجماعة وترك ما سواها ثم كثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وكثرت حتى ترك الجمعة فقال رسول الله ﷺ : « **يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ثلاثاً** » وفيه نزلت ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ

مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[1] روى مسلم عن ابن عمر -رضي الله عنه- عن النبى ﷺ قال : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ، فقيل هذه غدرة فلان ابن فلان** » وقال الله تعالى ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[2] وقد جعل النبى -عليه الصلاة والسلام- هذا النقض أمارة على النفاق والتذبذب وعدم الدراية ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان** » رواه الشيخان .

وأثنى الله عز وجل على إسماعيل - عليه السلام- بأنه كان يصدق فى وعده فقال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾[3] قيل عنه : « إنه لم يعد بوعد إلا وفى به » وآية ذلك صبره على قوله لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ، وسلم نفسه للذبح .

وأثنى الله على عباده الصالحين بأنهم يرعون الأمانات ويفون بالعهود والمواثيق ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾[4] وأمر بنى إسرائيل أن يتمسكوا بعهده ويقوموا بواجبات هذا العهد وأن يتقوا الله فيما أمرهم به ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[5] وقال المثقب العبدى من شعراء الجاهلية :

لا تقولن - إذا ما لم ترد   أن تتم الوعد فى شئ - نعم
حسن قول : نعم ، من بعد لا   وقبيح قول : لا ، بعد نعم
إنَّ : لا بعد نعم ، فاحشة   فبلا فابدأ إذا خفت الندم
وإذا قلت نعم فاصبر لها   بنجاز الوعد إن الخلف ذم

---

(1) سورة التوبة (75) .
(2) سورة البقرة (27) .
(3) سورة مريم (54) .
(4) سورة المؤمنون (8) .
(5) سورة البقرة (40) .

عهود أكيدة ومواثيق

أخذ هذا الخلق العظيم - الوفاء - من توجيهات القرآن والسنة عناية عظيمة كما رأينا وإنه لاهتمام كبير رأيناه موجهاً إلى بنى إسرائيل وسيكون موجهاً إلينا كذلك - نحن المسلمين - فقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾(1) أورد المفسرون حول هذه الآية ما يدل على أنها العهود ، قال الزمخشرى رحمه الله : العقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل » وعلى ذلك يكون المعنى : يا معشر المؤمنين أوفوا بكل عقد وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، قال ابن عباس : العقود العهود وهى ما أحل الله وما حرم وما جاء فى القرآن من الأحكام والتكاليف ، كان هذا أمراً عاماً بالوفاء بكل عقد وهى ستة : عهد الله عز وجل ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين ، وعقد البيع ، وعقد الشركة ، وعقد الحلف ، قال الله تعالى ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾(2) .

سار الوفاء بكل عهد أمراً لازماً يسأل عنه الإنسان يوم القيامة . . .

وبعد !!- وقد سرنا شوطاً طويلاً تعرفنا من خلاله على فضل الوفاء بالعهد وشؤم الخلف والغدر - فإننا الآن مع هذه العهود وكلمة عن كل واحد منها حتى يتبينها المسلم المعاصر ويكون على بينة من أمرها .

وهى - بالتالى - خير ما يمهد الطريق أمام البشرية فى عهدها الحاضر : أن تحترم كل دولة كلمتها وحريتها ثم - أيضاً - تحترم كلمة الغير وإرادته وحريته وتعلم أن الكلمة موثق غليظ تنتهى كل دولة عنده وبذلك يعيش المجتمع الدولى فى إخاء واحترام .

أول هذه العهود وأقدسها وأعظمها قدراً وأولاها بالرعاية والاحترام ما أخذه الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾(3) أخذ الله هذا العهد على الناس : أن

(1) سورة المائدة (1) . (2) سورة الإسراء (34) .
(3) سورة يس (60) .

يتمسكوا به وأن يستقيموا عليه وذلك بما زودهم به من عقل وفكر وبما أودع فيهم من قوى الفهم والإدراك ورسم لهم من دلائل الخير ووضح لهم من أمارات الشر ، فالعهد هنا بمعنى الوصية ، أى : ألم أوصيكم ، وهذا ما يشير إليه قول ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[1] قال لفيف من العلماء : « إن الله تعالى لما خلق آدم أخرج ذريته من ظهره وهم فى مثل الذر وأخذ عليهم هذا العهد أنه ربهم وخالقهم لا شريك له فأقروا بذلك » قال ابن عباس : مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ وقد روى هذا المعنى عن النبى ﷺ من طرق كثيرة ، وقال به جماعة من الصحابة . **وثانيها** : هذا العهد الذى أخذه الله على المرسلين أن يؤمنوا بالرسالة الخاتمة وأن يذعنوا لشريعتها ويسلموا القيادة لحامل لوائها رسول الله ونبيه محمد ﷺ فقال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[2] وهذا العهد وإن كان خاصاً بالمرسلين بعضهم مع بعض ، يوصى كل واحد منهم الآخر بأن يصدق برسالة خاتم المرسلين ويذعن له فإنه يتعدى بأثره ونتيجته إلى غيرهم ممن يحمل شيئاً من مسئولية الإصلاح فيكون عهد المصلح للمصلح الذى يحمل عنه منهجه وعمله حتى يسير كل واحد على خطه السابق وأن يكمل العمل الذى بدأ به وبذلك يستمر الإصلاح خطة نامية مستمرة شاملة وعملاً تتأسس على النفع والخير قواعده وتتكامل أركانه وبنيانه ، **وثالثها** : عهد الله على العلماء أن يبينوا للناس علم الكتاب الذى ائتمنهم الله عليه بكل وسيلة من وسائل البيان ولا يكتمونه خوفاً من بطش حاكم ولا يحرفون الكلم عن مواضعه إرضاء لمسئول أو ابتغاء لمنصب

(1) سورة الأعراف (172 ، 173). (2) سورة آل عمران (81) .

ونوال ، ولا يقفون بالنصوص عند ظواهرها دون البحث عن معانيها ومعرفة أسرارها ولا يجمدون عن استنباط ما يؤخذ منها مما ييسر للناس سبيل الانتفاع بها وبذلك يربطون الناس بالدين ولا ينفرونهم منه ، فإن فعلوا ذلك فقد أبعدوا أنفسهم عن لعنة الله ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[1] فأية مسئولية هذه ألقاها الله بهذا العهد على العلماء .

ورابعها : هذه العهود والعقود والمواثيق التي ينشئها الناس مع بعضهم فى الحياة العامة - بعيداً عن كل ما يخالف شريعة الله أو يصد عنها - مثل عقود الزواج والبيع والشراء وعهود المعاملات المالية والتجارية والاقتصادية والسياسية وعهود الدعوة إلى الدين والعمل الصالح والبيعة على حماية الإسلام ورفع رايته وحراسة رسالته وقد فعل الرسول ذلك مع الأنصار ليلة العقبة ، وفعل غيره فى مناسبات أخرى حين كان يقول عليه - الصلاة والسلام - : « **ألا تبايعون** » ؟ وتكون على الإيمان بالله وعدم الشرك به والصلاة وغير ذلك من الأعمال الصالحة .

هذه عهود ومواثيق ينبغي الوفاء بها والقيام بواجبها احتراماً للكلمة ونأياً عن ريبة الغدر فإن الله جل وعلا دمر على قرى عتت عن أمر ربها وكذبت رسلها وكان من مقتضيات المحق والإبادة أنهم لم يحترموا عهداً ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾[2] .



(1) سورة البقرة (159) . (2) سورة الأعراف (102) .

الباب الثالث

• وصايا أبوية غالية

- أقم الصلاة ... وآت الزكاة
- حراسة الفضائل والآداب
- درع المؤمن فى كل أمر
- التواضع وليس الكبر



الفصل الأول

أقم الصلاة ... وآتِ الزكاة

- هذه الكلمة ومعناها
- نحن والصلاة
- مكانة الصلاة فى الإسلام
- خير منهاج للتربية والإعداد
- وهذه الزكاة طهرة للنفس والمال
- ركن وشرط وحكمة

هذه الكلمة ومعناها

﴿ .. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. ﴾ ، ﴿ .. وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .. ﴾

من معانى كلمة الصلاة فى اللغة العربية : (الدعاء) فقد قال تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾(1) أى ادع لهم ، ومنه قول النبى ﷺ : « **إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليفطر وإن كان صائماً فليصل** » رواه مسلم عن أبى هريرة ، أي فليدع لصاحب الطعام ، ومن هذا أن أسماء بنت أبى بكر - رضي الله عنها - أنها حين ولدت ابنها عبدالله بن الزبير أرسلت إلى رسول الله ﷺ فحمله وقبله بين عينيه وصلى عليه ، ومن معانيها (الرحمة) ومن هذا المعنى اللهم صلِّ على محمد ، ومن معانيها (العبادة) قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾(2) ، وبقى من هذه المعانى اللغوية (القراءة) ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾(3) .

والصلاة فى اصطلاح الفقهاء عبارة عن « أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة » فالأقوال : مثل تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة والتشهد ، والأفعال : مثل النية والقيام والركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والجلوس الأخير .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الأفعال والأقوال كثيراً وشرحت السنة فضلها من جهة أوقاتها وأثرها فى رقى النفس وتهذيب القلب ونهضة الأمة ، شرحت الآيات هذه الصلاة شرحاً وافياً ، فصلاة الجمعة فى سورة الجمعة ، وصلاة الحرب فى سورة النساء فى الآية الثانية بعد المائة ، وذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات وبعض أحكام صلاة الخوف فى البقرة وجاء حكم

---

(1) سورة التوبة (103) . (2) سورة الأنفال (35) .
(3) سورة الإسراء (110) .

قصر الصلاة وصلاة الخوف فى النساء ، ثم ذكرت الأوقات فى سورة هود والإسراء والروم ، وتجد صلاة الليل فى المزمل ، وسجود التلاوة فى سور كثيرة ، وسجود الشكر فى سورة « ص » .

نحن والصلاة

وهذه الصلوات الخمس التى افترضها ربنا تبارك وتعالى على المسلمين فى كل يوم وليلة وجعلها ركناً عظيماً من أركان الإسلام بعد الشهادتين صرنا فى أدائها طوائف مختلفة وجماعات متعددة وأفراداً يتصرف كل فرد فيها حسب هواه وعقله ويؤدى أعمالها وهيآتها دون الرجوع إلى توجيهات الشريعة فى الفروض والسنن فمنا من يصليها بفروضها وسننها بهيآتها وحركاتها بخشوعها وركوعها وسجودها وفى أوقاتها المحددة لها . . وهؤلاء قليلون وقليلون جداً .

ومنا من يصلى الصبح فقط أو الجمعة فقط ، ومنا من يصلى الصبح فى غير وقته - بصفة مستمرة - لأنه نؤوم الضحى ثم يترك الظهر حتى يحين وقت العصر ثم يصلى المغرب مع العشاء وحين يحين وقتها .

ومنا من يصلى فى بيته إذا أراد ولا يحضر إلى المسجد فهجرت من أجل ذلك المساجد ولم نر من يعمرها ولا من يذكر الله فيها إلا نادراً وتنوسى القول الكريم ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ (1) ومنا من يقوم إليها بغير نشاط وقوة ولا ينهض إليها بشوق وحب ولا يجد فيها راحة نفسه وشفاء روحه كما كان يفعل رسول الله حين يأمر بها بلالاً « **أرحنا بها يا بلال** » ولم يقل أرحنا منها .

ومنا من يحضر إلى المسجد فلا يحترم أماكن الصلاة ولا الوقوف فيها ولا استواء من أجل الجماعة فيها ولا يعلم ما فى الصف الأول من الفضل والثواب ، وكان من عمل الرسول فى هذا الشأن أن يسوى بين الصفوف بقضيب فى يده

(1) سورة التوبة (18) .

فوجب أن نكون عند سنة رسول الله ، ومنا من يصلى الفرض ويترك السنة ، ومنا من لا يصلى .

والسبب فى ذلك واضح كل الوضوح وهو أنه لا توجد الرقابة لأعمال الدين ومنها (الصلاة) ولا توجد التربية التى يربى عليها النشء منذ الصغر ومن شأنها أن تدفع الشباب إلى الصلاة وهذا السبب الواضح يتشعب حتى يسأل عنه البيت مهد التربية الأول وتسأل عنه المدرسة مهد التربية الثانى ثم - أولاً وأخيراً - تسأل عنه الدولة حارسة الفضائل والآداب .

ونحن لا نبعد فيما قلناه عن هدى النبى محمد ﷺ فقد أعلنها صريحة مدوية بتحريق بيت من يتخلف عن الصلاة وهدمه على رأسه ، فروى البخارى ومسلم عن أبى هرير - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخلفه إلى رجال وأحرق عليهم بيوتهم** » .

مكانة الصلاة فى الإسلام

هذه الصلوات الخمسة : لها من الفضل الكبير والشرف العظيم والدرجة العالية عند الله والإصلاح النفسى والاجتماعى ما لا يدخل تحت عد ولا حصر وتدركون ذلك إذا تتبعنا تاريخ فرضيتها وتطور مشروعيتها ابتداء من البعثة وانتهاء بهجرة الرسول إلى المدينة فقد مر تشريع الصلاة فى هذه المدة بمراحل ثلاث :

أولاً : فرضت الصلاة أول ما فرضت فى ابتداء البعثة ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء وصلاة الليل ، ويدل على ذلك ما نزل من القرآن فى مكة وفيه أمر بإقامة الصلاة ، ويشهد لذلك أيضاً ما ورد : أن السيدة خديجة كانت تصلى فى البيت وقد ماتت قبل الإسراء بسنة وهذه هى أولى المراحل .

ثانيا : ثم فرضها الله فى ليلة المعراج خمس صلوات فى اليوم والليلة بنفسه مخاطبة لرسول الله وكانت ركعتين ركعتين فى الصلوات كلها إلا المغرب فكانت ثلاثاً وهذه هى ثانية المراحل .

ثالثاً : وعقب الهجرة من مكة إلى المدينة صارت إلى ما هى عليه الآن فصارت صلوات الظهر والعصر والعشاء أربعاً وبقيت الصبح ركعتين والمغرب ثلاثاً وفى هذا ما يدل على عظم شأنها والعناية بأمرها ومعى فى جولة قرآنية وأخرى حديثية عن الصلاة لنعلم إلى أى مدى كانت العناية بها فى كتاب الله والسنة الطاهرة ، فقد قرنها الله عز وجل بالعبادة والنسك ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾(1) وقرنها بالزكاة وستجدون ذلك كثيراً فى آيات كثيرة ، قال تعالى ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾(2) ، وقال تعالى عن إسماعيل : ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** ﴾(3) ، وقرنها بالذكر فى قوله تعالى ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾(4)، وقال سبحانه ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾(5) ، وابتدأ بها أعمالاً صالحة ثم ختمها بها فى الآيات العشر الأولى من سورة « المؤمنون » ثم كانت هي والصبر مكونين للشخصية الإسلامية الفاضلة فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾(6) وأبعد بها معاول الهدم والتدمير عن هذه الشخصية فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ** ﴾ (7) وهدد من يفرط فى شأنها ويتخلف عنها فقال : ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾(8) ولعظم شأنها وكبير أمرها ونبل مقصدها طلب إبراهيم من ربه أن يجعله من المقيمين لها ﴿ **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** ﴾(9) وأمر كل مسلم أن يقيمها وأن يأمر أهله بإقامتها قياماً بواجب التربية ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾(10) وأمر بها فى الأمن والخوف وهما حالتان يتقلب الإنسان

(1) سورة الأنعام .
(2) سورة البقرة .
(3) سورة مريم .
(4) سورة العنكبوت .
(5) سورة طه .
(6) سورة البقرة .
(7) سورة المعارج .
(8) سورة مريم .
(9) سورة إبراهيم .
(10) سورة طه .

بينهما فمرة يكون الإنسان آمناً مطمئناً ، وتارة يكون خائفاً مروعاً وليس كالصلاة عدة يتدرع بها الإنسان فى هذه الحال قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[1] وأمر بها فى السفر وفى الحضر وهما حالان كثيراً ما يتعرض لهما المرء فى الحياة قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[2] ووجبت من قيام كما صحت من قعود أو اضطجاع عند المرض وكانت بالوضوء كما صحت بالتيمم وصحت بدونهما عند العجز عنهما تفضلاً من الله ورحمة .

ثم بينها النبى ﷺ على أنها عماد الدين الذى لا تقوم إلا به ، ففى حديث معاذ ابن جبل ورد قوله - عليه الصلاة والسلام - : « **رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله** » وتولى الله إيجابها بنفسه مخاطباً بها رسوله ليلة المعراج ، كما فى حديث أنس وكانت أول ما يحاسب الإنسان عليه من الأعمال يوم القيامة وهذا من غير شك دليل على عظم شأنها ، عن عبدالله بن قرط - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله** » رواه الطبرانى ، وهى آخر ما وصى

(1) سورة البقرة . (2) سورة النساء .

به رسول الله ﷺ أمته من الأعمال جعل يقول : « - وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة - **الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم** » وهي آخر ما يفقد من أمور الدين وهداه ، وذلك ما يتحدث به النبى - عليه الصلاة والسلام - فيقول : « **لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة** » رواه ابن حبان من حديث أبى أمامة .

خير منهاج للتربية والإعداد

هذه الصلوات الخمس : وزعها ربنا عز شأنه على ساعات اليقظة فى اليوم والليلة لتكون مرقاة للمسلم إلى الخشوع والتقوى والوصول إلى الساحة الطهور ومعراجاً إلى الرضوان الإلهى ، ومدعاة إلى الصفاء النفسى والنقاء القلبى ، وكانت بما اشتملت عليه من ركوع وسجود وقراءة خير منهاج لتربية النفس والروح والقلب والمجتمع ، تجمع الناس فى اليوم خمس مرات ومرة فى الأسبوع على المعانى الاجتماعية الطيبة من النظام والطاعة والمساواة والحب والإخاء والوحدة والحكم والشورى ، وفيها التواضع والإخاء والاتحاد ، وفيها شفاء النفس من نزغات الشيطان وضلال الهوى ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء** » رواه مسلم ، ولذلك كانت منهج إعداد للنفس وإبعاد لها عن نزغات الأهواء ، ففى رواية الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال : « **وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

هذه الصلوات الخمس : لابد من المحافظة على وقتها المحدد والمبين فى الآيات الكريمة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(1) وقال تعالى : ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ** ﴾(2) ولابد من إتقان ظاهرها بتجويد أقوالها وأفعالها

(1) سورة هود (115) . (2) سورة الروم (18) .

وإسباغ الوضوء لها ولابد من حضور القلب فيها وخلوه من شواغل الدنيا .

هذه الصلوات الخمس : شملت كل شئ حسن مما هو موجود فى نظم الناس وطرحت مساوئها فأخذت محاسن الدكتاتورية من الحزم وتركت القسوة والجبروت والقهر والظلم فكان للإمام السمع والطاعة على الناس فى الجماعة فيما لم يخالف فيه نظم الصلاة وكان لابد من تنبيهه إلى الصواب إذا خالف الواجب فيها .

وأخذت من الديمقراطية الرأى الحر والشورى وتركت الفوضى فالإمام مع جماعته فى المسجد وحدة مصغرة للمجتمع الكبير ، وأخذت من الشيوعية - فيما يزعم أصحابها - المساواة بين الغنى والفقير فى كل معانى الخير والرحمة والتعاون والتضامن وتركت الحقد والظلم .

وبهذا كانت الصلاة الإسلامية خير منهاج يجمع الناس على المعانى الفاضلة والأخلاق الكريمة والعقيدة السليمة والعبادة الصحيحة والمعاملة الحسنة .

وهذه الزكاة طهرة للنفس والمال

وهذه الزكاة ركن قوى من أركان الإسلام وبين يدى الكلمة نذكر هذا الحديث ، عن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن النبى ﷺ قال : « **من آتاه الله مالاً فلم يُؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه** : - **يعنى شدقيه** - **ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك** » ثم تلا هذه الآية ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ رواه البخارى والنسائى ومسلم .

يرسم لنا رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فى هذا الحديث صورة ناطقة معبرة مخصصة لرجل يأتى يوم القيامة : يجئ هذا الرجل يوم القيامة - والناس فى هول وفزع عظيم - على صورة أفدح وأعظم ما يتصوره عقل بشر ، إذ يأتى والناس على هذه الحال من الفزع والشدة والهول والكرب وقد التف حول عنقه ثعبان عظيم

مهول مرعب أقرع ابيضت رأسه من كثرة ما فيها من السم فأصبح بهذا المنظر بشعاً مخيفاً ثم يضع رأسه هذه الفظيعة أمام شدقى الرجل ويقول له - بصوت يسمعه الناس - أنا مالك . . . الذى لم تؤد حق الله فيه ، أنا كنزك . . . الذى احتجنته وزويته عن الفقراء والمساكين . . . وادخرته لنفسك ولم تنفق منه على الضعفاء والمحتاجين . . . أتدرى من يكون هذا الرجل يا ترى ؟؟ .

إنه الرجل الذى أعطاه الله مالاً كثيراً وخيراً وفيراً فى الحياة الدنيا فلم يؤد حق الله فيه من زكاة وصدقة وغير ذلك من الحقوق والواجبات ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضرة فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق ؟؟

فقال رسول الله ﷺ : « **تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل** » رواه أحمد .

إن الزكاة مظهر التكافل الاجتماعى بين المسلمين وهى العبادة المالية فى الإسلام وفيها مراقبة الله عز وجل فى المال الذى هو أحب الأشياء إلى الشخص ولهذا كان فعلها أشق على النفس الإنسانية لا يقوم بها ولا يؤديها إلا من وهب عقيدة سليمة قوية صحيحة أما هؤلاء المهازيل ضعفاء العقيدة الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله فليسوا من الإسلام على حظ كبير ومن أجل ذلك سميت زكاة ، قال تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾[1] فهى تطهير للنفس من دنس الشح وتحرير لها من ربقة البخل وارتفاع بها إلى مستوى الإنسانية الرشيدة وتطهير للمال من الضياع والبوار كذلك ، وقد توعد الله عز وجل أولئك الذين يبخلون فلا يؤدون حق الله فى المال فقال فى شأنهم : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾[2] .

(1) سورة التوبة (103) . (2) سورة التوبة (35) .

ركن لها وشرط وحكمة

والزكاة لها ركن تقوم عليه ولها شرط تتحق به كما أن لها حكمة ، فركنها هو الإخلاص لله رب العالمين ، فليس من الدين فى شئ أن تعطى الزكاة للفقراء ثم تطلب فى مقابل ذلك أن يساعدوك أو يعاونوك فى الشئون المنزلية وغيرها ، وشرطها هو ملك النصاب : مقدار النصاب فى الزروع والثمار مقدار النصاب فى المال المدخر مقدار النصاب فى الماشية : الإبل والبقر والغنم مقدار النصاب فى عروض التجارة ونصاب الركاز والمعادن وذلك على التفصيل الذى فصله وشرحه العلماء بكتاب الله والسنة . . . ولها أكثر من حكمة :-

فهناك حكمة روحية نفسية هى تطهير النفس من دلس الشح والبخل ، وتطهير المال من الضياع والبوار ، فأنت حين تخرج زكاتك تكون قد حررت نفسك من رذيلة والكزازة ، ولهذا كان النبى ﷺ يستعيذ بالله من البخل والجبن وغير ذلك مما يدمر النفس فيقول : « **اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال** » والحديث فى الصحاح ، وأيضاً حين تؤدى زكاة مالك تكون قد طهرته من أنواع الضياع ، وما أكثرها فى هذا العصر فهناك الأمراض والأوجاع وهناك المحاكم والمستشفيات وهناك الاستغلال والنهب وهناك السرقات مكشوفة ومقنعة دون رادع أو رقيب ، عن الحسن - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع** » رواه أبو داود فى المراسيل .

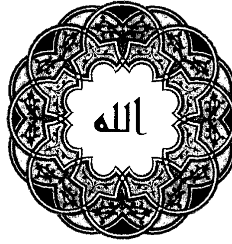
وهناك حكمة دينية أخروية : هى رفع الدرجات فى الجنة والثواب العظيم الذى أعده الله للطائعين قال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾(1) وقال رسول الله ﷺ : « **صنائع المعروف تقى مصارع السوء والصدقة تطفئ غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر وكل معروف صدقة وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة وأول من يدخل الجنة هم أهل المعروف** » .

---

(1) سورة الأعلى (14) .

وهناك حكمة إنسانية اجتماعية : هى استرقاق الأحرار والاستيلاء على قلوب الرجال ، فأنت حين تؤدى الزكاة إلى الفقراء والمساكين تكون قد ملكت رقابهم بمعروفك وأسرت قلوبهم بمالك وألزمتهم الدفاع عن مالك ونعمتك ، ولن يسيئوا إليك أبداً لأنهم يأخذون حقهم من هذا المال ، ومن أجل ذلك كانت كلمة الحكيم العربى « **من وجد الإحسان قيداً تقيدا** » .

فليت شعرى !! هل وجد المسلمون هذه الفائدة من فوائد الزكاة وعرفوها ؟ أغلب الظن : لا !! إنهم عن فائدتها غافلون ، وكان ذلك سبباً فى شيوع السلب والنهب وراجت السرقات والاستغلال والانتهازية ، وغير ذلك مما ينزع البركة من المال ويضيعه ويهدد سلامة المجتمع الإسلامى وأمنه وسعادته واستقراره .





الفصل الثاني

حراسة الفضائل والآداب

- رسالة حق وإصلاح
- مصلحون وصفات وشروط

﴿ ... وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ... ﴾

ليس هناك أدعى للهدوء والطمأنينة والأمن والاستقرار والرفاهية والتقدم من أن يعيش كل فرد من أفراد المجتمع فى الدائرة التى رسمها له مجتمعه للحفاظ على حقوق الناس وعاداتهم وتقاليدهم ، عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » رواه الشيخان ، وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة** » رواه الشيخان .

وليس أجلب للتعاسة والشقاء والقلق والاضطراب من أن يتمرد الشخص على الآداب الاجتماعية العامة ولا يعبأ بشعور الناس وعاداتهم وتقاليدهم ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً** » رواه مسلم ، وعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم** » رواه مسلم ، وعن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا** » رواه مسلم .

ومن أجل ذلك وجهت الدعوة إلى العلماء والمصلحين فى كل عصر أن ينهضوا إلى مكافحة الباطل أياً كانت مظاهره وألوانه ، ومن هنا كانت الدعوة إلى قول الحق وإذاعته وهى عماد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

رسالة حق وإصلاح

ومعنى ذلك أن تأمر بالخير وتنهى عن الشر وأن تكون أداة إصلاح بين الناس وأن تعمل على رد الحقوق إلى أصحابها وأن تدفع الأذى والغيبة وغير ذلك من الأمور التى تدبر ضد الناس فى الخفاء حتى تحافظ على دمائهم وأعراضهم وأموالهم : عموماً تأخذ على يد الظالم أياً كان ظلمه وأن تقف بجانب المظلومين . . .

وهى مهمة شاقة عنيفة تتطلب جهداً ثقيلاً ووقتاً طويلاً وإيماناً بالله عميقاً وشجاعة نادرة ورجولة فارعة ولن يقوم بها إلا من وثقت بالله قلوبهم وتطهرت من غرور الدنيا نفوسهم . . .

هى مهمة كلف بها المسلمون من الله وكلفوا بها من رسول الله : كلف بها المسلمون من الله حين أمرهم بذلك فقال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] ، وكان لابد من قيام جماعة تحرس الآداب العامة والأخلاق والفضائل من عبث العابثين كى تضع الأمور فى نصابها ، ومدح الله الأمة الإسلامية لأنها تحقق هذا المبدأ العظيم من مبادئ الدين الحنيف ، فقال عز شأنه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[3] أمور ثلاثة : أمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، يصاحبهما إيمان بالله والثلاثة تحققها الأمة الإسلامية ، وعندئذ تكون كما قال الله فى شأنها فهو شرط لابد من تحققه وإلا فسوف لا تكون الأخيرية التى أشار الله إليها فى قوله الكريم ، وهو ما ينطبق تماماً على حال المسلمين اليوم ، فهل هم خير أمة ؟ إننا نأخذ هذا من مضمون الفعل المضارع :(تأمرون) . و(تنهون) . . (تؤمنون) الذى يدل على الحال والاستقبال .

وكما كلف المسلمون بهذا من الله كلفوا به أيضا من رسول الله ، فعن أبى الوليد عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال :« بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول الحق

---

(1) سورة آل عمران (104) .
(2) سورة الأعراف (199) .
(3) سورة آل عمران (110) .

أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » متفق عليه : وقد دفعتهم هذه البيعة إلى قول الحق فى وجه الأخيار والأشرار على السواء .

والمجتمع الذى يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقول الحق ويذيعه مجتمع مستقيم وسليم تسير فيه الأمور سيراً حسناً ويأخذ كل ذى حق حقه ويأمن فيه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وقد مدح الله القائمين على هذا الأمر وأثنى عليهم ، فقال : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾(1) وبين صفاتهم وخصائصهم فى سورة قصيرة ، قال تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ .

ولن تجد مجتمعاً يخلو من هذه الفضيلة السامية ويتخلى عن هذا الواجب المقدس إلا كانت الأمور فيه مضطربة اضطراباً كبيراً ويأخذ فى التفكك والانهيار ثم الفناء والضياع أخيراً ، عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً** » رواه البخارى ، وقال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾(2) عقاب إلهى صارم أن يؤخذ كل من لم يتعظ ويتبع توجيهات الله فإن المعاصى تدمر الحياة البشرية تدميراً مبيناً وتقضى على تماسك المجتمع وقوته ، روى أبو داود أن النبى ﷺ قال : « **إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرين على أن ينكرون فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة** » وروى البيهقى عن النبى ﷺ أنه

---

(1) سورة التوبة (71) .   (2) الأعراف (165) .

قال : « **أوحى الله عز وجل إلى جبريل – عليه السلام – : أن اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها .. فقال : يا رب إن فيهم عبدك الصالح فلان لم يعصك طرفة عين .. : فقال : اقلبها عليه وعليهم .. فإن وجهه لم يتمعر ساعة قط** » .

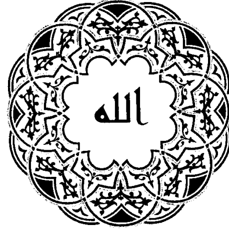
فإن فى الحياة اليوم : الاستغلال والرشوة والاستعمار وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[1] وروى البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال : كان على ثقل النبى ﷺ رجل يقال له « كِرْكِرَة » فمات فقال رسول الله ﷺ « **هو فى النار** » فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءة قد غَلها » ، وروى البخارى عن خولة بنت عامر الأنصارية وهى امرأة حمزة – رضي الله عنها – قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن رجالاً يتحوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة** » .

وفى الحياة اليوم : النفاق والملق والوصولية وهى مدمرات للإيمان وكاسحات لليقين ، عن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان** » متفق عليه .

وفى الحياة اليوم : الرياء والربا والزنا والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم جهرة وعلانية كما تنشر الصحف كل يوم ، وفى الحياة تطفيف المكيال وبخس الميزان والسلب والنهب ، وفى الحياة اليوم الميوعة والغيبة والنميمة والسرقات والغش ولن يكون العلاج الحاسم إلا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيام أولى الأمر ومن يريد أن يتصدر ركب المسئولية بمحاسبة المسئ وعقاب المنحرف ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – فى نظرى – أحد نوعى الجهاد : فإن الجهاد جهاد خارجى ، ويقوم على قتال المشركين والمستعمرين الذين يريدون القضاء على حريتنا وديننا وأوطاننا ويمثله فى هذه الأيام الانتفاضة فى فلسطين ضد اليهود وشراذم الأمم وشذاذ الآفاق والصمود فى الفلبين أمام العلمانية والجهاد فى أفغانستان ضد الشيوعية الحمراء وغير ذلك مما هو موجود فى مناطق من أرض الإسلام ، وإن الاستشهاد فى سبيل ذلك

(1) سورة البقرة (188) .

استشهاد فى سبيل الله وأجره وثوابه عظيم عند الله عز وجل : والنوع الثانى : جهاد داخلى يقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقول الحق والعمل به ، ويقوم على مدافعة الظالمين والمستهترين والملحدين والبغاة الذين يهددون سلامة المجتمع : وإن المسلمين مسئولون أمام الله مسئولية مباشرة عن هذا الأمر الكبير - أفراداً وجماعات - روى الترمذى عن حذيفة - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : « **والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم** » وقال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾[1] .



---

(1) سورة هود (116) .

مصلحون وصفات وشروط

وليس كل رجل يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ويتصدى لهذا الأمر وإنما ينهض به ويسهر عليه أناس مخلصون أوتوا محبة الله والناس ورزقوا السلامة فى دينهم ودنياهم فيجب فى حق كل رجل يقوم بهذا الأمر ويتصدى لتلك المهمة أن يتحلى بأمور ثلاثة :-

أولاً : أن يكون قوله وعمله مخلصاً لوجه الله متجنباً الرياء والغرور والزهو ، عالماً بأحكام الحلال والحرام حتى يعرف حق الناس فلا يطغى عليه ، وإلا صار أداة إفساد بين الناس وضاعت الفائدة منه ، وكان من آفة الآفات لهذا الأمر أن رأينا من يتصدى له تنقصهم الدربة الكافية والعلم بمجريات الأحداث ومعرفة الأسباب كى يضع لكل داء دواءه .

ثانيا : أن يكون متخلقاً بالأخلاق الحسنة عاملاً بما يقول ، يقول الحق لنفسه قبل أن يقول للناس ، جاعلاً قوله عاماً للناس كلهم على اختلاف طبقاتهم وأسنانهم للغنى والفقير ، للصغير والكبير ، للقوى والضعيف ، لأن الله تعالى نعى على قوم يقولون الحق للناس ونفوسهم ملتوية ويأمرون بالبر وقلوبهم معوجة فقال ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(1) .

وأوحى الله إلى عيسى - عليه السلام - : « **يا عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحِ منى** » .

وروى الشيخان عن أبى زيد أسامة بن زيد بن حارثة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه** » وجاء رجل إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس : إنى أريد أن آمر بالمعروف

(1) سورة البقرة (44) .

وأنهى عن المنكر ، قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثانى قال : قوله تعالى ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[1] أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث قال : قول العبد الصالح شعيب - عليه السلام - : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ ﴾[2] أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك » رواه الضحاك .

وشبيه بهذا من حكمة الشعر قول أبى العتاهية :-

يا ذا الذى يقرأ فى كتبه ... ما أمر الله ولا يعمل
قد بين الرحمن مقت الذى ... يأمر بالحق ولا يفعل
من كان لا تشبه أفعاله ... أقواله فصمته أجمل
من عذل الناس فنفسى بما ... قد فارقت من ذنبها أعذل
إن الذى ينهى ويأتى الذى ... عنه نهى فى الحكم لا يعدل
وراكب الذنب على جهله ... أعذر ممن كان لا يجهل
لا تخلط ما يقبل الله من ... فعل بقول منك لا يقبل

وأشهر ما قيل فى هذا الموضوع لأبى الأسود الدؤلى :-

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
وآراك تلقح بالرشاد عقولنا ... أبداً وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

---

(1) سورة الصف (2) . (2) سورة هود (88) .

فهناك يسمع ما تقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم

لا تنــه عن خلق وتأتى مــثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ثالثاً : أن يكون مؤمناً بهذه الرسالة ، واثقاً من نصر الله ، متوكلاً عليه ، شجاعاً جريئاً فى الحق لا يخشى فى الله لومة لائم ، وإنما وجب فى حقه هذا الأمر حتى لا يخشى الأقوياء ويهاب الأغنياء ويكون دائماً مع الله ويعلم يقيناً أنه لن يصيبه إلا ما قدره الله عليه .

وقد بين النبى ﷺ مراتب هذه المهمة فى أمور ثلاثة : **الأولى** : تغيير المنكر باليد وهى (القوة) ويمثله أولوا الأمر فإن تخلفوا عن ذلك فقد وقعوا فى الإثم المبين ، روى أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال : « **إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم** » ، قلنا : وما ظهر فى الأمم قبلنا ؟ قال : « **الملــك فى صغاركم والفاحشة فى كباركم والعلم فى رُذالكم** » خرجه ابن ماجة ، **الثانى** : تغيير المنكر باللسان ويمثل هذا الجانب (الكلمة القوية) من خطابة وكتابة وغيرها وهذا عمل عظيم إذا وجد أناساً مخلصين ، **الثالث** : تغييره بالقلب وهى أقل المراتب شأناً لأن صاحبها يكتفى بغضب القلب على المنكر تاركاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله وهذا يتنافى مع عزة المؤمن وحريته وشجاعته .

وبعد !! فإن لكل مجتمع من المجتمعات خصائص ومبادئ يتميز بها عن غيره والمسلمون لهم من هذه الخصائص والمبادئ شئ كثير وكانت فى رسالة الخير والنور والهداية رسالة الحق والعدل وقد قام بها الجيل الأول ومن تلاه من الأجيال ثم جاء من بعدهم خلف غفلوا عنها فضاع الزمام من أيديهم وحمل الراية غيرهم وما زال الأمر يضمحل حتى وصلنا إلى ما نحن فيه الآن : اضطهاد وتضييق وكبت . . قتل وتشريد . . اعتداء وانقلاب فى كل ناحية من العالم الإسلامى .



الفصل الثالث

درع المؤمن فى كل أمر

- درع واق من ضربات الزمن
- آفاق للصبر وميادين
- إلى الصبر الواسع

﴿ ... وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

الإنسان خلق من خلق الله كما أن ما فى الكون - كذلك - خلق من خلق الله .

ولما كانت طبيعة هذه الحياة متغيرة ومتبدلة تتغير وتتبدل من آن لآخر لا تدوم على حال واحدة كان الإنسان كذلك خاضعاً لنواميس الكون يخضع لما يخضع له سائر الأحياء من التغير والتبدل فليست له حالة واحدة ولا لطبيعته دوام أو ثبوت فمرة غنى وقوة ، ومرة فقر وضعف ، ومرة صحة وفرح ، ومرة مرض وحزن ، ومرة عزة ونعمة ، ومرة ذلة وشقاء ، فهو فى كل أحيانه متأرجح بين السراء والضراء والأفراح والأحزان .

درع واقٍ من ضربات الزمن

والإنسان فى كل حين - لابد - محتاج إلى قوة تعصمه من الوقوع فى براثن الجزع والهلع وتمده بطاقة كبيرة تجعله يتلقى ضربات الحياة وأهوالها بعزم شديد وحزم حديد ومن هنا كان لا ملجأ له ولا ملاذ لقلبه إلا أن ينبع له من داخل نفسه خلق جميل هو (ينبوع الصبر) يلوذ به فى الملمات ويلجأ إليه فى النكبات ويعوذ به حين تحل به الأهوال المروعة والكوارث المؤلمة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] وقال عز شأنه : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[2] وهذا ما كان يقول به الصالحون حين تنزل بهم الأزمات الطاحنة فيعيشون عليه ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[3] .

والإسلام قد رفع كثيراً من مكانة الصبر والصابرين فجعله لحمة الفضائل وسداها وسما بشأنه حيث جعله فى مقدمة الأخلاق الجميلة والأعمال الطيبة فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وعن

(1) سورة آل عمران (200) . (2) سورة البقرة (45) .
(3) سورة البقرة (250) .

أبى يحيى صهيب ابن سنان -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** » رواه مسلم ، فالصبر مفتاح الخير يدور معه حيث يكون

قال بعض العارفين : الصبر ثلاث مقامات : أوله ترك الشكوى وهى درجة التائبين ثم الرضا بالقضاء وهى درجة الزاهدين ثم محبة ما يصنع به مولاه وهذه هى درجة الصديقين .

واعلم أن الصبر تارة يكون واجباً كالصبر على فعل الواجب وترك المحرم ، وتارة يكون مندوباً كالصبر على فعل المندوب وترك المكروه ، وتارة يكون محرماً كالصبر على ترك الأكل حتى يموت والصبر على نحو حية أو سبع أو كافر يقتله ، وتارة يكون مكروهاً كالصبر على نحو قلة الأكل جداً وعن جماع خليلته إذا احتاجت والصبر على الماء الشديد السخونة فى الوضوء ، وتارة يكون مباحاً كالصبر على ترك تناول طعام نفيس . . .

وروى أن رجلاً جاء إلى بيت عمر بن الخطاب يشكو إليه سوء خلق زوجته فسمع امرأته من داخل البيت تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها فانصرف الرجل قائلاً : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالى ؟ فخرج عمر فرآه موليا فناداه : ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين جئت أشكو إليك سوء خلق زوجتى واستطالتها علىّ فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فيكف حالى ؟ فقال له سيدنا عمر :« يا أخى إنى أصبر عليها وأحتملها لحقوق لها علىّ : إنها طباخة لطعامى خبازة لخبزى غسالة لثيابى مرضعة لولدى ويسكن قلبى بها عن الحرام فأنا أصبر عليها وأحتملها لذلك ، فقال له الرجل : وكذلك زوجتى قال : فاحتملها فإنها مدة يسيرة » .

هذه هى منزلة الصبر فى الناحية العملية مستقاة من آيات القرآن وهدى رسول الله وعمل أهل الخير والتقى ، إنه الدرع الواقى للشخص من كوارث الزمن والدواء الناجح للآلام التى تصيب المؤمن فى عقيدته وإيمانه ، فى بيته ووطنه وأمته ، فى

جهاده وكفاحه ، ولقد كان الصبر سلاح السلف الصالح على عهد المسلمين الأولين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين يوم أن كانوا يقفون فى المعارك الحربية أمام الحشود الهائلة من جنود الفرس والروم والتتار والمغول فكان يتنزل النصر عليهم جزاء صبرهم والتجائهم إلى الله وإيمانهم به رغم قلة العدد وضآلة العتاد وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(1) وقال تعالى : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(2) وكان النبى ﷺ يقول من حديث جامع : « **واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً** » .

آفاق للصبر وميادين

وهذه ميادين للصبر وآفاق ، وتتركز كلها فى موطنين اثنين ، **أولهما** : هذه الحياة فإن الله لم يجعلها دار قرار بل جعلها دار ابتلاء وامتحان ولذلك دامت الأوجاع والأسقام فيها ونزلت بأصحابها وكان لابد أن يقابلها الإنسان بصدر رحب وصبر عظيم شامل ويقين قوى ورجاءواسع فى رحمة الله فلا يغضب ولا يسخط ولا يجهل ولا يكن للجزع على نفسه سبيل ، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(3) وروى مسلم عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها** » قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيراً منه رسول الله ﷺ ، **والثانى** : هذا الدين الحنيف : فإن الإنسان المؤمن خليفة عن الله عز وجل على الأرض يعمرها بالإيمان والعدالة والتقى ولهذا الأمر العظيم تكاليفه وتضحياته وواجباته وعلى ذلك لن يكون الإيمان أمانى عذاباً ولا كلمات معسولة يرددها اللسان دون أن يستكن فى قلب صاحبه فكان لابد من تمحيص

(1) سورة البقرة (249) . (2) سورة الأنفال (66) .
(3) سورة البقرة (156) .

يبتلى المؤمن فيه ويضطهد ويخرج من محنة كى يدخل فى أخرى على سنة أصحاب الدعوات الإصلاحية الذين يهدمون الباطل بمعاول الحق ويمحون ظلماته بنور الهداية قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾(1) وقال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾(2) .

وبهذا القول تقرر : أن الإيمان لن يقوم به إلا أناس صفت نفوسهم وطهرت قلوبهم وسمت روحهم وسيحملون فى سبيله الآلام الشداد والتضحيات الغالية . أما هؤلاء الذين ضعفت عقيدتهم ، ورق يقينهم فلن ينتصر بهم دين ، ولن تنهض بهم أمة ، ولن تقوم على أيديهم رسالة ، لأنهم سوف يفرون عند الصدمة الأولى فى معارك الإيمان ولا يصبروا على مدافعة الشرك والطغيان ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾(3) .

وهذه الميادين الذى تركز الصبر فيها سوف تتشعب عن التطبيق العملى فى الحياة وتتنوع إلى أنواع ثلاث : **الأول** : الصبر على الطاعات فإن هذه التكاليف الشرعية والواجبات التى يكلف بها الإنسان تتطلب جهداً طويلاً وعزماً أكيداً ، وإذا عرفنا أن هذه التكاليف الشرعية الربانية هى الأمانة العظمى التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان : إذا عرفنا ذلك ووعيناه أدركنا عظم الطاعة وضخامة الرسالة وما يتطلب كل ذلك من صبر وجهد ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾(4) .

إن الصلاة التى تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات يقول الله فى شأنها ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(5) كذلك معايشة

---

(1) سورة آل عمران (142) .
(2) سورة العنكبوت (2) .
(3) سورة العنكبوت (10) .
(4) سورة الأحزاب (72) .
(5) سورة طه (132) .

الناس وصداقتهم والإبقاء على مودتهم والإغضاء عن هفواتهم كل ذلك خصال تعتمد على الصبر الجميل وقد قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[1] وكذلك الجهاد فى سبيل الله من أجل المبادئ العليا والوصول إلى الأهداف الكبيرة لخير البشرية وإسعادها والعمل على إسداء المعروف للناس عامة يتطلب الصبر الطويل . . . وهكذا كل أمر من أمور الدين والدنيا ستجد الصبر لحمته وسداه .

الثانى : الصبر على المعاصى وهذا هو الميدان الواسع الرحب الذى تقف فيه النفوس أمام المغريات والشهوات التى كانت فى طريق الناس وزينت لهم اقتراف المحظور ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات** » رواه مسلم ، وإن الإقبال على المكاره والشدائد والتكاليف والواجبات التى تفرضها النفس ، وإن البعد عن الشهوات والمغريات التى تفتن الضعاف وتغرهم لا يستطيعها إلا صاحب القلب الكبير واليقين القوى الذى يملك زمام نفسه ويردها إلى ما يرضى الله .

الثالث : الصبر على ما يصيب المؤمن فى نفسه وماله وأهله وسمعته بين الناس وهى أمور متوقعة ، وهيهات أن تخلو منها الحياة ، فيجب على المسلم أن يلجأ إلى الله فى وقت الشدة حتى يستطيع أن يخفف من حدتها ويكفكف من غلوائها وله على ذلك ثواب الله ، عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : « ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة** » رواه البخارى .

إلى الصبر الواسع

إن الصبر سلاح المرء فى هذه الحياة كما أنه أساس قوى من الأسس التى تقوم عليها نهضة المجتمع فالطالب فى حاجة إليه ليقطف ثمار المعرفة والزارع يلوذ به فى

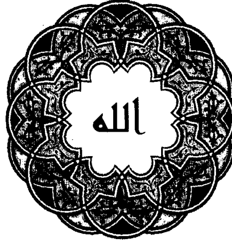
(1) سورة الكهف (28) .

انتظار ما يفئ الله به عليه من ثمرات غرسه ، وقل مثل ذلك مع الصانع والتاجر .

والدول هى الأخرى - خاصة فى أيام نهضتها - محتاجة إليه لتنشئ المشاريع الضخمة وتبنى المجتمع المتماسك اللبنات وتربى الأجيال التى ستحمل الرسالة إلى من بعدهم ، وقَلَّ أن تجد دولة بلغت فى المجد غايته إلا بعد أن كافحت وصبرت على لأواء الحياة وبأسائها .

إن الحياة ميدان كفاح وجلاد وغلاب لا تعرف الهدوء واللين والطراوة ولا يتمكن منها ويقود زمامها إلا صبور ، عن أبى سعيد الخدرى أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله فأعطاهم حتى نفذ ما عنده ثم قال : « **ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر** » متفق عليه .

إننا - نحن المسلمين - فى حاجة ماسة إلى الصبر الطويل فى كل ميدان من ميادين الحياة وفى وقت تجمعت فيه كل أمم علينا فقهرونا فى ديارنا وأذلونا على أرضنا ، نتدرع به فى هذه الكوارث النازلة بنا والنكبات التى حلت بأمتنا ، فإن أخشى ما نخشاه أن ينتقل هذا الخلق العظيم الذى أمر به ربنا وحثنا عليه نبينا إلى أعدائنا ويصبح سلاحاً فى أيديهم يشهرونه فى وجهنا ، فليكن صبرنا أوسع من صبرهم وجهادنا أشمل من جهادهم وكفاحنا أكبر من كفاحهم وكلنا أمل ورجاء فى أن يهيئ الله لنا من أمرنا رشداً ويرزقنا النصر والتوفيق والهدى .



الفصل الرابع

التواضع ... وليس الكبر

- الكبر شذوذ فى الفكر والعمل
- طوائف المتكبرين وأفعالهم
- تواضعوا يرفعكم الله

﴿ ... ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ... واقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ... ﴾ سورة لقمان .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، قال رسول الله ﷺ : « **قال الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار** » رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان .

والإزار : ما يتزر به ، والرداء : ما يتقى به من الحر والبرد ، والكبرياء : العظمة والعزة والقوة والملك والملكوت ، وينبغي أن يكون معلوماً أن الله تعالى تحدث عن الإزار والثوب والرداء ليقرب المعنى المقصود إلى أذهاننا - نحن البشر - ذوي العقول الكليلة والأذهان القاصرة والأفهام المحدودة وإلا فالله عز شأنه - كما قال عن نفسه - ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(1) فسبحانه تنزه عن الشبه والنظير والصاحبة والولد والثوب والرداء وغير ذلك من صفات البشر .

والله سبحانه وتعالى اختص نفسه بصفات الكبرياء والعظمة والقوة والجبروت لأنه خلق فسوى ، وقدر فهدى ، ورزق وأنعم ، فمن نازعه من المخلوقين واحداً من هذه الصفات فقد باء بغضب منه ومأواه جهنم وبئس المصير ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾(2) .

الكبر شذوذ في الفكر والعمل

والمتكبرون قوم يدعون إلى النار دَعًّا ويساقون إلى جهنم سَوْقاً ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(3) فلهم فيها أماكن أعدت لهم يعيشون فيها ويقيمون بها ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(4) وذلك جزاء غرورهم وصلفهم وكفاء استعلائهم وطغيانهم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾(5) وما ظلمهم الله بهذا وإنما كان لاختيارهم العمى على

(1) سورة الشورى (11) .
(2) سورة النحل (23) .
(3) سورة الزمر (72) .
(4) سورة الزمر (60) .
(5) سورة الأعراف (146) .

الهدى وابتعادهم عن طريق الله وهدايته وتركهم قدوه وسنته ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (1) وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **احتجت الجنة والنار فقالت النار : فيَّ الجبارين والمتكبرون وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم . . فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء ولكليكما علىَّ ملؤها** » .

والمتكبر أعماه غروره وصلفه عن أن ينظر إلى الحقائق كما هى ، بل إنه ليستعلى على الحق ويستهين بأقدار الناس فلا يذعن لنصح ولا يسعى لخير ولا يستجيب ، لرشد وهذا ما قصد إليه الرسول فى الحديث ، فعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ؟ قال : « **إن الله جميل يحب الجمال** ، **الكبر** : **بطر الحق وغمط الناس** » رواه مسلم والترمذى ، وذلك ما نراه من أفعال المتكبرين ونسمعه من أقوالهم فليس لهم من كلام سوى الحديث عن أحسابهم وأشخاصهم وأعمالهم .

والنهى عن الكبر ورد على لسان الرسل جميعاً مما يدل على أنه رذيلة ينبغى أن يتطهر منها القلب المؤمن وهذا ما يبينه حديث من أحاديث رسول الله ، رواه البزار والنسائى والحاكم بروايات عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **إن نوحاً - عليه السلام - لما حضرته الوفاة جمع ابنيه وقال لهما : آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت فى كفة الميزان ، ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منها ، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانت حلقة فوضعت لا إله إلا الله لقصمتهما وآمركما بسبحان وبحمده فإنهما صلاة كل شئ وبها يرزق كل شئ** » .

---

(1) سورة غافر (35) .

طوائف المتكبرين وأفعالهم

ونظرة عجلى إلى المتكبرين وأفعالهم رأيناهم طوائف ثلاثاً : -

فطائفة تكبرت على الله وهذا أفحش أنواع الكبر وأشده ولا مدعاة له إلا الحمق والغباء ولا مثار له إلا الجبروت والطغيان ، وذلك مثل ما روى عن (نمروذ) فقد روى عنه أنه حدث نفسه بأن يحارب رب السماء ، ومثل ما حكى عن قوم آخرين منهم (فرعون) حينما ادعى الألوهية والربوبية ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ واستنكف أن يكون عبداً لله وطغى وبغى فحق عليه وعلى أمثاله قول العلي الكبير : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] ومثل ما حكى عن كفار قريش وقد أعماهم الكبر عن الإذعان لصوت الحق وإنكار بارئ الخلق ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ؟ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾[2] أما العباد الصالحون أولوا الرأى الرشيد ، والعقل السَّديد ، والنظرة الصائبة ، والحكمة الغالية ، فهم تحت أمر الله وطوع شرعه ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾[3] .

وطائفة أخرى من المتكبرين تكبروا على رسل الله : ترفعوا عن الانقياد لهم ولم يذعنوا لرسالاتهم ولم يعملوا بشرائعهم ويقتدوا بهم حقداً وحسداً وترفعاً عليهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً ﴾[4] جاء هذا المنطق الجبار على لسان المكذبين من كل أمة : -

قال قوم نوح : عنه - ﴿ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾[5] وحذر بعضهم بعضاً من اتباعه فقالوا : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾[6] وقال قوم موسى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا

---

(1) سورة غافر (60) .
(2) سورة الفرقان (60) .
(3) سورة النساء (173) .
(4) سورة الفرقان (21) .
(5) سورة المؤمنون (24) .
(6) سورة المؤمنون (34) .

وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾[1] وقال كفار قريش حين تكبروا على رسول الله فلم يذعنوا لرسالته ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] مستكثرين عليه الرسالة لفقره ولو كان رسولاً من الله كما يقول لكان أولى بها رجلاً غنياً منهم لغناه ، ومن أجل ذلك دفع الله زعمهم وأنكر عليهم فهمهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ .

وبقيت طائفة ثالثة تكبرت على العباد : ولا هَمّ لهم إلا الغرور والصلف والاستعلاء والغطرسة ليُنَوِّه الناس بشأنهم ويرفعوا ذكرهم ، وما هم بفاعلين لأنهم سقطوا من أعين الناس ولفظتهم المجتمعات ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[3] .

إنك إذا نظرت إلى أحوال المتكبرين واستمعت إلى أقوالهم ، تدرك أنك أمام قوم مجانين أو معاتيه ، فتراهم يقولون أقوالاً ويفعلون أفعالاً لا تصح أن تصدر عن عقلاء ميزوا عن غيرهم بالعقل ولكنه الضعف الإنسانى الغلاب أمام شهوات النفس وغرورها .

هذا المهلب بن أبى صفرة - وهو من تعلم شجاعةً وإقداماً فى ميدان الحرب - لبس حلة جديدة ومشى بها الخيلاء !! فقال له مطرف بن عبدالله بن الشخير : يا أبا عبدالله !! ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله ؟ فقال له المهلب : - باستعلاء وكبرياء - أما تعرفنى ؟ فقال : « بل أعرفك . . أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل البول والعذرة » .

وهذا الوليد بن يزيد بن عبدالملك - وكان من الجبابرة - فتح المصحف يوماً فخرج له قول الله تعالى ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[4] فمزق المصحف قائلاً : -

(1) سورة المؤمنون (47) .
(2) سورة الزخرف (31) .
(3) سورة البقرة (206) .
(4) سورة إبراهيم (15) .

أتوعد كـــل جـــبار عنـــيد   فـــها أنا ذا جبـــار عنـــيد

إذا ما جئت ربك يوم حشـر   فقـل يا ربنى مزقنى الوليد

ولكن الله لم يهمله حتى يجئ يوم القيامة بل سلط عليه بعد أيام من قتله شر قتلة ومزق جسده تمزيقاً وصلب رأسه على باب قصره ثم على السور العام وهكذا تكون عقبى الجبروت والكبرياء .

وللكبر أسباب تدعو إليه وتتجمع كلها فى أمرين : أما **الأول** : ففى نفوذ الأمر وطول اليد بمعنى أن يجد المتكبر نفسه فى مجتمع يخضع له ويذل أمامه مما يجعله فى النهاية يرى نفسه كبيراً دونهم ، وأما **الثانى** فعدم اختلاط المتكبر بأهل الرأى والعلم والثقافة والعقل المستنير الذين يرتقى بأفعالهم وينتفع بآرائهم ، ولاشك فى أن من يغتر بهذه الأسباب هم ضعفاء النفوس فيجعلون لها طريقاً إلى قلوبهم وتسلطاً على نفوسهم ، أما أصحاب الهمم الكبيرة ، والعقول النيرة ، والأفئدة الصافية ، فينأون عن هذه الأمور ولا يجعلون لها طريقاً إلى نفوسهم ، قيل : إن قوماً ساروا خلف علىّ بن أبى طالب - رضي الله عنه - فقال : « أبعدوا عنى خفق نعالكم فإنها مفسدة لقلوب الرجال » وسار جماعة خلف ابن مسعود فقال : « ارجعوا فإنها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

تواضعوا يرفعكم الله

ولا بأس من سوق طائفة من أقوال المربين وأفعالهم وهم الذين رسخت فى مقام التواضع أقدامهم ففطموا هذه النفس من استعلائها ، أخرج الطبرانى عن جرير : أن رجلاً أتى النبى ﷺ من بين يديه فاستقبلته رعدة شديدة ، فقال النبى ﷺ : « **هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد** » وإنما قال رسول الله ذلك حسماً لداعى الكبر ، وقطعاً لذريعة الإعجاب ، وكسراً لشهوة النفس وتذليلاً لسطوة الاستعلاء .

وأبصر الناس يوماً فسمعوا المنادى يقول : « الصلاة جامعة » فذهبوا إلى المسجد فصعد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على رسول

الله ثم قال : « أيها الناس !! لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأي يوم » ، فقال له عبدالرحمن ابن عوف : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك ، فقال عمر : « ويحك يا ابن عوف !! إني خلوت إلى نفسي فحدثتني قائلة : أنت أمير المؤمنين فمن ذا يساميك ومن ذا يطاولك ؟ فأردت أن أعرفها نفسها » .

ومثل ثالث نأخذه من سيرة عبدالله بن سلام : أنه مر في السوق وعليه حزمة من حطب فقيل له : ما يحملك على هذا ؟ وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردت أن أدفع الكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه خردلة من كبر** » رواه الطبراني ، وروى أن الفضل بن يحيى دخل ذات يوم على أبيه وهو يتبختر في مشيته فقال له يحيى : « يا أبا عبدالله !! إن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء والعلم ، فيالها من حسنة غطت على عيبين عظيمين ، ويا لها من سيئة غطت على حسنتين كبيرتين » ثم أومأ إليه بالجلوس وقال : « احفظه يا أبا عبدالله فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء » ومن خير ما قرأناه من الأقوال الحكيمة في هذا الشأن قول الشاعر :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع
وأكرم أخلاق الفتى وأجلّها ... تواضعه للناس وهو رفيع
وأقبح شئ أن يرى المرء نفسه ... رفيعاً وعند العالمين وضيع

وقال بعض البلغاء : « من برئ من ثلاث نال ثلاث : من برئ من السرقة نال العز ، ومن برئ من البخل نال الشرف ، ومن برئ من الكبر نال الكرامة » ، وروى الحاكم عن طارق قال : خرج عمر - رضي الله عنه - إلى الشام ومعنا أبو عبيدة فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له فنزل وخلع خفيه فوضعهما على عاتقة وأخذ بزمام ناقته فخاض ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك ، فقال : « أوَّهْ ولو يقل ذا غيرك يا أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ،

إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله »

وعن عياض بن حماد - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد** » رواه مسلم ، وروى أيضاً عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « **ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله** » .

هذه هي فضيلة التواضع من كلام الله وهدى رسوله وعمل أصحاب الرأى والحكمة جلوناها بعد أن شرحنا رذيلة الكبر ، وليكن معلوماً أن التواضع فضيلة تباين الضعف والجبن والهوان . . . .

التواضع : معاملة الناس بالحسنى واحترامهم مع الاحتفاظ بأسباب الكرامة والعزة ، فهو جملة من مكارم الأخلاق ، هو عزة وكرامة وإباء وهدوء فى وقت واحد وهو سبيل إلى القوة والمنعة والرجولة الحقة ، وغيرها سبب التأخر والانحطاط والهبوط ، وهى فضيلة حثنا عليها الله . . ومسكنا بها رسول الله . . وفرق بين هذا وذاك .

التواضع : فضيلة أمرنا بها الله . أما الضعف والجبن والكبر والهوان رذائل نهانا عنها رسول الله ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

تم الكتاب

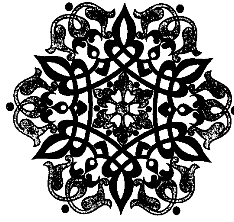
الله

الفهرس

الفهرس

الباب الثالث

وصايا أبوية غالية



مطـــابع الصـــقر
ت: ٠١٥/٤١٢٥٥٥ - ٠١٥/٤١٢٧٧٧